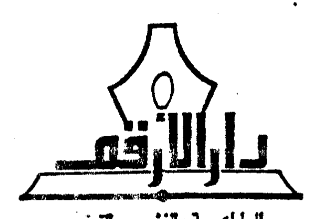
دكتور
مصطفى الشكعة
كلية أصول الدين
القاهرة

ابن خلدون

منشئ علم الاجتماع

(دراسة مقارنة)



للطباعة والنشر والتوزيع
١٦ شارع منصور (مولد النبى) الزقازيق
ص . ب : ٢٠٣ ت : ٣٢٠٦٨٣(٠٥٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقدمة في أهمية علم الاجتماع)

عندما خلق الله الإنسان ، فطره على حب (التجمع) ومعاشرة بني جنسه .

ومنذ الوهلة الأولى للوجود الإنساني كانت (النبوة) التي تستهدف أن تحقق (للاجتماع) الإنساني الرفاهية والسعادة ، وأن تدله على كيفية العمل في الحياة (المحدودة) وعلى معنى الحياة (الممدودة) .

ولتأصيل هذا (الاجتماع) جاء الإسلام ليوضح : أنه يمكن للإنسان أن يرتقي في علاقته بربه الخالق ، إذا استطاع أن يكون (راقيا) في علاقته بمجتمعه الانساني . وأنه تعالى (يثيبه) على تلك العلاقة الاجتماعية .
وقد صب هذا المعنى في حديث رسول الله ﷺ القائل (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له) [1] .

وهذه (الثلاث) عند التأمل نجدها لاتخرج عن كونها مناشط اجتماعية لخدمة البيئة الإنسانية ، ونشر الخير بين الناس ولو عمت هذه (الثلاث) : لكونت (اتجاها) في المجتمع ، هذا الاتجاه عندما يوجد ويقع يسمى (ظاهرة) اجتماعية أو (واقعة) اجتماعية أو (نموذجاً) أو (نمطا) .. وهذه كلها بمعنى واحد وهي : (موضوع) علم الاجتماع المعاصر .

فإن (الصدقة الجارية) لاتخرج عن (مشروع) ينفع المجتمع الانساني سواء أكانت (شق) نهر . أو (تعبيد) طريق أو انشاء (مدرسة) للعلم أو كانت (دارا) لرعاية اليتامى أو (مستشفى) لعلاج المرضى .. إلى آخر هذه المناشط الاجتماعية التي تخدم البيئة .

---

(١) رواه أبوداود وأحمد .

ويمكن أن يقال مثل ذلك في (العلم النافع) الدنيوي والديني والأخلاق والوصايا والحكم .

ويأتي الأمر الثالث (الولد الصالح) في صورة تخصيصية للاجتماع الانساني حيث يحث الإسلام الفرد : على أن لايكون وجوده - فقط - مصدر خير للمجتمع والناس .. بل يجب أن يمتد وجوده للخير على طريق الأبناء ..

والوسيلة إلى ذلك : هي تربية وتأديب الأولاد حتى ينشأوا على الأخلاق النافعة للمجتمع .

وهذه الوصية هي التي يلح على تعميقها علماء الاجتماع تحت اسم (التنشئة الاجتماعية) .

ولسنا بصدد استكناه ألفاظ الحديث الشريف لنخرج منه الآثار الاجتماعية الممتازة ولكننا بإزاء إبراز اهتمام (الوحي الإلهي) بكمال وسعادة الاجتماع الإنساني .

فلاعجب - إذن - أن نجد (ميدان) الرسالات والنبوات هو هذا (الاجتماع) الانساني .

وأن (غاية) النبوة هو : القضاء على (ظاهرة) اجتماعية مرفوضة وإحلال (ظاهرة) اجتماعية أخرى مقبولة في منهج الله تعالى . ولعل هذا هو المعنى في قوله تعالى ﴿ **إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم** ﴾ [1] .

ولا نجد عندئذ : إلا نقول :

إن هذه (العناية) من النبوات .. هي التي وجهت نظر (العلماء) إلى الاهتمام بدراسة أحوال (الاجتماع) الإنساني .

ويكفي أن نستحضر (تاريخ) كل (نبي) في دعوة قومه لندرك مدى (صراعه) العنيف مع (الظاهرات) الاجتماعية الفاسدة وكيف عانوا من مشكلة العادات والتقاليد - الإلف - الاجتماعية .

---

(١) سورة الإسراء : آية : ٩ .

فقد حكى القرآن الكريم عنهم أنهم قالوا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[1] وهذا كان خضوعاً من المعاندين لما يسمى عند علماء الاجتماع : بالضغط الاجتماعي .

وينبغي أن نعلم أن هذا الاهتمام لوحظ في مناخ التفكير الانساني كالذي لمحناه في محاولة الفيلسوف الإغريقي (أفلاطون) عندما أراد أن ينشيء مجتمعاً مثالياً . فوضع تصوراً (لجمهورية) يعيش فيها الناس في (مدينة فاضلة) سعيدة .

ووجدت دراسات اجتماعية أخرى في جميع الحضارات الإنسانية (الإغريقية - الفرعونية - الصينية) .. إلى آخر ماذكره المؤرخون .

ولاعجب أن نجد (الصياغة العلمية) لهذه الدراسات العلمية الاجتماعية تنبت أول ماتنبت في المحيط الإسلامي ، على يد (ابن خلدون) الذي ألهمه الإسلام وجود هذا العلم فأنشأه باسم (علم العمران) قبل أوربا بمئات السنين .

وظل العالم بعده يحاول دون أن يقف على (علم العمران) . وتاريخ العالم يحكي كيف أراد الله سبحانه وتعالى أن تبلغ الاجتماع الانساني كماله فكان (منهج الإسلام) الذي جاء به محمد ﷺ مستهدفاً تحقيق (السعادة) للاجتماع الإنساني .

ومنذ ظهورالإسلام وهو يقاوم (الظواهر) الاجتماعية الباطلة ويرسي أسس (الظواهر) الاجتماعية النافعة الحقة . ومعركة الإسلام مع ظاهرة (الخمر) و(الربا) و(وأد البنات) و(التبني) و(السفاح) وغير ذلك .. بارزة وواضحة وتؤكد (الميدان) الحقيقي للإسلام بعد الإيمان بجانبه العقائدي ..

وعلى ذلك يظهر لنا بوضوح :

أن الإسلام في جانبه الأخلاقي والعملي ، إنما هو الصورة الاجتماعية والنمط الاجتماعي الذي لم يكتسب من الاجتماع الانساني وإنما هو من (تصوير) الله

---

(١) سورة الزخرف : آية : ٢٣ .

تعالى الذي أراد أن يكون هذا (النموذج نمطاً لحياتهم الاجتماعية التي يرضى عنها الإسلام) .

ولعلنا بذلك : نكون قد وصلنا إلى تقرير أهمية دراسة علم الاجتماع .

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يجعل عملنا نافعاً وأن يكون المنهج الذي يوصل عليه الطرائق إلى منهج الله تعالى .

[ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا وإليك المصير]

هذا .. وبالله التوفيق .

دكتور

مصطفى غلوش

كليـة أصول الدين

القـاهرة

الباب الأول

الفصل الأول

إبن خلدون

منشيء علم الاجتماع

عبدالرحمن بن خلدون ، الفيلسوف الاجتماعي المسلم الذي استطاع بعبقريته أن ينشيء (علم الاجتماع) وأن يكتشفه قبل (أوربا) بخمسة قرون تقريباً وقد أسماه (علم العمران) .

ولايمكننا أن نقف على هذا العمل الجليل . إلا بعد عرض موجز لدور (ابن خلدون) في إنشاء علم الاجتماع محاولين أن نلفت النظر إلى أن (الرجل) لم يكن مجرد (باحث) بل إنه شارك الحياة وشاركته . فأثر وتأثر واتصل بالحكام والسلاطين وعامة المسلمين وتنقل بين الدول والأمصار لندرك بجلاء دور (الحضارة الإسلامية) في نشأة (علم الاجتماع) والتي أسمته (علم العمران) .

التعريف بابن خلدون :

هو : أبوزيد ولي الدين عبدالرحمن بن محمد ، المشهور باسم (ابن خلدون) و(خلدون) هو جده (التاسع) وكنيته (أبوزيد) ولقبه (ولي الدين) ناله يوم أن تولى القضاء (المالكي) في مصر .

ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢م) وتوفي سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦م) وتعلم العلم بها فحفظ القرآن الكريم ودرس علوم الشريعة من : فقه مالكي إلى حديث إلى تفسير ، كما درس النحو والصرف والبلاغة والفلسفة والمنطق وأعجب به أساتذته كما كان وفياً لهم يذكرهم في مؤلفاته .

وقد انتقل إلى (الجزائر) وعاش بفاس الذي دخل فيها السجن لمدة عامين لتآمره على أميرها . وعين (أميناً للسر) فجدد نظام ديوان الأمير حتى ولاه القضاء فكان عدلاً ذا كفاية .

ثم رحل ابن خلدون إلى (الأندلس) وعاش بها (سنتان ونصف) ثم عاد إليها ثانية ، وتفرغ للدرس والتأليف ، حيث أقام كما يقول (بأحياء أولاد عريف .. فتلقوني بالتحفى والكرامة وأقمت بينهم أياماً .. حتى بعثوا إليّ أهلي وولدي من تلمسان وأحسنوا العذر إلى السلطان عني في العجز عن قضاء خدمته وأنزلوني بأهلي في قلعة إبن سلامة ...) .

وقد قضى بها ابن خلدون أربع سنوات ، تفرغ فيها للتأليف والدرس .

فأخذ يدون كتابه التاريخي المشهور المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وقد قدم لهذا الكتاب ببحث علمي موضوعي جعله (مقدمة) لكتابه واختص البحث بشئون الاجتماع الإنساني وقوانينه .

وقد اشتهر هذا البحث بعد ابن خلدون باسم (مقدمة ابن خلدون) وكان عمره يوم أن ألف هذه (المقدمة) خمسة وأربعون عاماً وقد استفاد ابن خلدون بسعة دائرة اطلاعه ، وماحصل عليه من تجارب ومشاهدات في شئون الاجتماع الإنساني، وقد اكتسب فائدة من اشتغاله بالسياسة فنضجت بذلك كله معارفه إلى جانب ذكاء وقاد . واستيعاب للحضارة الإسلامية وعلوم الشريعة الإسلامية وتاريخ الفكر الإنساني وجهود علماء الإسلام في التأليف والابتكار والتفكير في جميع الاتجاهات.

وقد كان في سبيل الحصول على (معارفه وتجاربه) ينتقل بين القبائل ويختلط بها ويدرس عاداتها وسيرها وأخبارها كما كان يعنى بدراسة أحوال اجتماعها ، وتصوير تقاليدها التي تسري بينها وتربط علاقة أفراد القبيلة بعضها ببعض .

وقد مكنه تفكيره الخصب وعبقريته الفذة وبديهته الحاضرة وملاحظته الدقيقة من القدرة على : التعمق في (الظاهرة) الاجتماعية وتأملها وفحصها وتصنيفها ورد الأمور المتشابهة منها بعضها إلى بعض باحثاً عن (السبب) .

وقد استطاع ابن خلدون أن يميز بين ماينتج عن الظاهرة (عرضاً) وبين مايأتي عنها بطريق (اللزوم) .

وكان ابن خلدون يخلص من ملاحظاته ودراساته وفحوصه تلك إلى أمر خطير هو - الآن - قوام علم الاجتماع وغايته العظمى . وأعني به : تفريغ هذه الدراسات في قوانين عامة تحكم هذه الظاهرة المدروسة .

ومن الطريف حقا : أن ابن خلدون يعترف أنه قد كتب (المقدمة) في خمسة شهور فقط .

ونحن ندهش معه في توفيقه إلى الوصول إلى هذه القواعد والقوانين المبتكرة الرائدة التي لم يسبق إليها خلال هذه المدة الوجيزة .

ويحاول استاذنا الدكتور علي عبدالواحد وافي : أن يجد المبرر الذي يوضح قدرة ابن خلدون على تأليف المقدمة في هذه المدة .. والتي كان خليقاً أن يستغرق عدة سنوات ، فيقول :

(ويبدو أن نظره الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها ، وأن ذهنه الألمعي كان لايفتأ يختزن المعلومات وأن (عقله الباطن)[1] كان لاينفك يرتب الحقائق ويوزان بينها ويستخلص النتائج وإن كل ذلك يجري في صورة (لاشعورية) (أو في صورة قريبة من ذلك ، وأنه عندما تهيأ له شيء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت الملاحظات المختزنة وبدت النتائج التي انتهت إليها العمليات العقلية اللاشعورية فأشرقت من خلال هذا كله بحوث (المقدمة) إشراقاً وتدفقت الآراء والأفكار تدفقاً في صورة دعت إلى دهشته هو نفسه)[2]

واعتقد أنه كان يكفي في تفسير هذا الابتكار أن نقول إنها العبقرية التي نشأت وتربت وسط الجو الإسلامي ، واستفادت بالقواعد والقوانين والدراسات التي ظهرت قبلها في المحيط الإسلامي فاستلهمت هذه المعاني وهذا الأستلهام هو الذي قادها إلى أن تبرز فكرة (المقدمة) خلال هذه المدة وأن هذا هو (فضل الله) يؤتيه من يشاء .

---

(١) نلاحظ أننا لانرتضي فكرة (العقل الباطن) هذه لأنها ليست فكرة مسئولة ، ويبدو أثر علم النفس المعاصر وتعبيراته الغامضة على عبارات العلماء الأجلاء .

(٢) راجع ص : ١٠ من ك (ابن خلدون) .

وتاريخ الإسلام يوضح بجلاء : كيف أنشأ وابتكر علماؤه الكثير من العلوم الجديدة المبتكرة [1] . فابن خلدون هو ابن البيئة الإسلامية الذكي العبقري .. الذي .. قلده سابقيه من علماء الإسلام في الابتكار وانفرد عنهم باختيار الميدان الذي لم يطرق قبل على هذا النحو .

وبعد ذلك حضر ابن خلدون إلى (مصر) سنة ٧٨٤ هـ والقاهرة آنذاك هي قطب العلماء . وموئل التفكير الإسلامي في المشرق والمغرب وكان (المماليك) الذين يحكمونها في هذا العصر يوسعون صدورهم وقصورهم للعلم والعلماء .

وكان ابن خلدون معروفاً في مصر قبل أن يصل إليها فلما وصلها قوبل بالترحاب من السلطان والعلماء والتف حوله طلاب العلم ينهلون من ثقافته ويستفيدون من طريقته الجديدة في (مناهج البحث) .

إبن خلدون والأزهر :

ولما كان الأزهر – ومازال – أكبر المعاهد العلمية في القاهرة والعالم أصالة وثقافة .. فإن فؤاد ابن خلدون اشتاق للتدريس في الأزهر الشريف وقد سمح لابن خلدون أن يتخذ من أروقة الأزهر (مدرسة) يلتقي فيها بتلاميذه ومريديه . وقد سعد ابن خلدون بتصدر حلقة للتدريس في الأزهر فنجده يصف اغتباطه بذلك فيقول :(ولما دخلتها – مصر – أقمت أياماً وانثال علي طلبة العلم بها . يتلمسون الإفادة مع قلة البضاعة – يلاحظ تواضعه – ولم يوسعوني عذراً فجلست للتدريس في الجامع الأزهر) .

وقد درّس ابن خلدون الحديث والفقه المالكي وشرح نظريته الاجتماعية التي صاغها في (مقدمته) وقد كان ابن خلدون بجوار علمه الغزير محدثاً لبقا ، ومحاضراً ممتازاً ، يخلب ألباب السامعين بمنطقه . وقد شهد له بهذه الميزة من عاصره من المؤرخين من أمثال (تقي الدين المقريزي) المؤرخ المشهور والعلامة (الحافظ ابن حجر العسقلاني) .

---

(١) مثل : أبي الأسود الدؤلي . والخليل بن أحمد . وغيرهما كثير

وقد ولاه السلطان (برقوق) سلطان مصر (القضاء) ثم نحاه عنه لأسباب سياسية ثم ولاه منصب (كرسي الحديث) ثم سافر إلى دمشق وقابل قائد المغول (تيمورلنك) ثم عاد إلى مصر ثانية وتولى قضاء المالكية ودخل في صراع مع منافسيه من العلماء وخصومه في المناصب حتى السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس ١٤٠٦م) وهو اليوم الذي توفي فيه : ابن خلدون .

وهكذا انتهت هذه الحياة الحافلة الضخمة التي تركت في جميع المناحي آثاراً علمية فوعت معنى (الظواهر) وأدركت معاني الاجتماع الإنساني . فلم يكن هو (العالم) الذي أغلق عليه بابه (وأطلق عقله) . وإنما كان هو العالم الذي فتح عقله وبابه ، بل إنه (ساح) في الأرض تشده المعرفة ويجذبه الطموح السياسي والعلمي فكان بذلك معبراً عن (الإنسان) وحاجته إلى (المجتمع) [1] .

---

(١) دفن ابن خلدون بمصر في مقبرة الصوفية بالقاهرة خارج باب النصر ، ولكن قبره الآن غير معروف .

إبن خلدون
و
علم العمران

أول من تحدث عن الحاجة إلى علم جديد يبحث في أحوال الاجتماع الانساني ووضع أصوله وقواعده وقوانينه هو (ابن خلدون) .

وقد صاغ العلم الذي توصل إليه في (مقدمته) .

وعندما يقال مقدمة (ابن خلدون) فإنها تعني الأمور التالية :

(أ) خطبة كتاب (العبر) .

(ب) مقدمة كتاب العبر نفسه .

(جـ) الكتاب الأول من كتاب (العبر) وكان يطلق لفظ (كتاب) بدلاً من (باب) .

فهذه الأمور الثلاثة هي : مقدمة ابن خلدون .

وصف المقدمة :

أولاً : خطبة الكتاب أو (الافتتاحية) :

وعرض فيها ابن خلدون بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ : لبحوث المؤرخين الذين كانوا قبله . وشرح أوجه النقص عندهم ، وذكر طوائفهم والأسباب التي لم ترق له عندهم ، فألف من أجل ذلك كتابه (العبر) .

ثانياً : المقدمة الخاصة بالكتاب وقد وضعها في (فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلمام لما يعرض للمؤرخين من المغالطة والأوهام وذكر شيء من أسبابها) .

ثالثاً : الكتاب الأول من كتابه (العبر) وهو الجزء الثالث نفسه من (المقدمة الخلدونية) وهي بتعبيرنا المعاصر (الباب الأول) من كتاب (العبر) لابن خلدون .

وقد جاء هذا (الكتاب الأول) في طبيعة العمران في الخليقة ومايعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها ، ومالذلك من الأسباب والعلل) .

وهذا القسم هو : القسم الرئيسي من (مقدمة ابن خلدون) فبينما وقعت الخطبة في (خمس) صفحات (ووقعت المقدمة في عشرين صفحة) نجد أن الكتاب الأول وقع في (٥١٧) صفحة [١] .

محتوى عناصر الكتاب الأول :

أ - التمهيد : وفيه تحدث ابن خلدون عن التاريخ وموضوعه « كعلم » وأسباب الخطأ فيه ، والدواعي التي جعلته يؤلف كتابه (العبر) وخاصة كتابه الأول (تلت المقدمة) .

ب - ستة بحوث رئيسية هامة : تركزت على بحث ظواهر الاجتماع الإنساني وهذه البحوث هي :

١ - البحث الأول :

وعنوانه (في العمران البشري علي الجملة) ويشمل : أهمية الاجتماع الإنساني وضروته للإنسان ، وبحوث جغرافية وبيان لأثر البيئة الجغرافية في ألوان البشر وأخلاقهم وشئون معاشهم .

وينتهي ابن خلدون إلى بيان معنى : الوحي والرؤيا وفي أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة وفي حقيقة النبوة والكهانة والعرافين .

٢ - البحث الثاني :

وعنوانه (في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل) .

وقد عرض فيها أحوال الشعوب البدائية وكيف نشأت ؟ وبعض شئونها

---

(١) راجع طبعة دار الشعب ، وهي التي اعتمدت على طبعة دار البيان التي حققها أستاذنا الدكتور علي عبدالواحد وافي .

الاجتماعية ، وأبان أصول (المدنيات) ثم ذكر طائفة من نظم الحكم والسياسة المتعلقة بالشعوب البدائية .

وهذا مايمكن أن نسميه (فحص الظاهرة الاجتماعية) .

٣ - البحث الثالث :

وعنوانه (في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية) .

وقد تعرض فيه ابن خلدون لنظم الحكم وشئون السياسة بصفة عامة وصور من القواعد والمبادىء التي تقوم عليها هذه الأنظمة .

٤ - البحث الرابع :

وعنوانه (في البلدان والأمصار وسائر العمران) .

وقد تعرض فيه ابن خلدون لذكر نشأة المدن والأمصار ، ومواطن التجمع الإنساني ، وماتمتاز به المدن عن غيرها من مختلف الأنشطة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية .. إلى آخر هذه الظاهرات الاجتماعية .

٥ - البحث الخامس :

وعنوانه (في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ومايعرض في ذلك كله) .

وقد تعرض فيه ابن خلدون : لأحوال الاقتصاد ومعاش المجتمعات والنظم التي تحكم المجتمعات في هذا الصدد ومايطلق عليه الآن إسم الظاهرة الاقتصادية .

٦ - البحث السادس :

وعنوانه (في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه ومايعرض في ذلك كله من الأحوال) .

وقد تعرض فيه ابن خلدون لبيان فروع العلوم والفنون والآداب - النماذج الاجتماعية -وفرق (ابن خلدون) بين الظاهرة المكتسبة والظاهرة التي لاتكتسب- كما ميز بين علم النبوة وعلم البشر من خلال منظوره (الاجتماعي) .

موضوع مقدمة ابن خلدون :

ينبغي أن نشير إلى أن (الموضوع) الذي دار فيه وحوله (مقدمة ابن خلدون) هو (الظاهرة الاجتماعية) فقد تكفلت (المقدمة) ببحث (الظواهر الاجتماعية) ومحاولة رصدها في جميع مناحي الحياة الاجتماعية ولم يكن هذا خافياً على ابن خلدون ، بل إنه قصده قصدا ، وأطلق على الظواهر الاجتماعية اسم : (واقعات العمران البشري) واسم (أحوال الاجتماع الانساني) [1] .

وكان ابن خلدون يتصور أنه بالتمثيل للظاهرة فإنه يكون قد عرفها . فمثل للظاهرة من قبيل التعريف بها ..

ولكن المحدثين لم يعتبروا (التمثيل للشيء) قائم مقام التعريف به بينما هذا معتبر في التأليف الحضاري عند المسلمين .

وهذا لايعيب ابن خلدون المبتكر الأول لعلم الاجتماع وقد جاء بعده (إميل دور كايم) فعرف الظاهرة في كتابه (قواعد المنهج الاجتماعي) .

وعندما نذكر التمثيل الذي ذكره ابن خلدون للظاهرة سيتضح لنا جلياً أنه كان يعرف : معنى الظاهرة أو خصائصها وتميزها عن غيرها ..... إلى آخر هذه الأمور التي أبرزها وجلاها المحدثون . والتي تمنى ابن خلدون نفسه أن يأتي من بعده من العلماء مايكمل عمله .. ويوسع دائرة الانتفاع .

التعريف بالتمثيل للظاهرة عند ابن خلدون :

يقول ابن خلدون في مقدمته :

(إنه لما كانت طبيعة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو : عمران العالم ، ومايعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأني والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ من ذلك من الملك والدول

---

(١) يلاحظ أن هذه التسمية للظاهرة اختلف اسمها أيضاً عند علماء الغرب الاجتماعيين فقالوا: ظاهرة وواقعة ونموذج .... ونمط .... إلى آخر تلك المسميات .

ومراتبها ومايتحمله البشر بأعمالهم ومعاشهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر مايحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال .. ونحن الآن نبين في هذا الكتاب مايعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع ..)

وقد نظر (ابن خلدون) إلى الظاهرة الاجتماعية في جميع اتجاهاتها التي تظهر فيها . فعدد (الزوايا) التي تنشط فيها الظاهرة من :عائلية إلى لغوية إلى اقتصادية ... إلى آخر الظاهرات . وأوضح أنها : متطورة لاتعرف الاستقرار وهذا الاستقرار - عند ابن خلدون - هو ماتسعى إلى تحقيقه (الظاهرة الاجتماعية) .

وأوضح ابن خلدون كيف تتبدل الظاهرة وتتغير وأبرز معنى (التغير) الاجتماعي .

وقد عرض ابن خلدون بطريق التفصيل لظواهر (التجمع الإنساني) فأفصح عمّا أسماه (دور كايم) فيما بعد (المورفولوجيا الاجتماعية Lemorphologie Sociaic أي : علم البنية الاجتماعية) .

ونشير هنا إلى أن (دوركايم) ومدرسته ، تصوروا أنهم المكتشفون لعلم البنية الاجتماعية ، هذا ، ولم يدركوا أن (ابن خلدون) سبقهم إلى ذلك بخمسة قرون من الزمان .

كما فصل ابن خلدون القول عن : الظواهر الاجتماعية الخاصة بالمجتمعات البدائية والمجتمعات الحضارية وأظهر أصول المدنيات أي قواعدها وقوانينها .

ثم تعرض لنظم الحكم وشئون السياسة والنظم الاقتصادية ، وأوضح النظم التربوية والتعليمية والقضائية والخلقية والجمالية والدينية واللغوية .

ابن خلدون يدرس الظاهرة وهي في الاستقرار والتطور :

إهتم ابن خلدون وهو يدرس الظواهر الاجتماعية بدراستها وهي في حالة (الاستقرار) ودراستها وهي في حالة (التطور) ومزج الظاهرات في (قوالب) التفكير والفهم وحدها كلها في إطار يجمعها هو إطار : النظم الخاصة بنظم السلوك والعمل .

وهكذا يقفز ابن خلدون من دراسة الظواهر إلى قوالب (القوانين) التي تحكم الظاهرة .

القانون الاجتماعي هو غاية المقدمة :

أوضح ابن خلدون في مقدمته إلى مايرمي إليه من (غاية) وراء دراسته للظاهرة الاجتماعية وهذه الغاية هي الكشف عن قوانين الظاهرة التي تخضع لها في نشأتها واستقرارها وتطورها وأحوالها ومايعرض لهذه الأحوال من ثبات وحركة ووجود وعدم .

والإنسان منذ نشأته وهو يكتشف (القانون) [1] الذي يحكم ظاهرة من ظواهر الحياة أو الكون . بدءا من قوانين الطبيعة وسيراً مع القوانين التي تعنى بدراسة الإنسان ، واكتشف قوانين الإنسان الشخصية من : تذكر وتخيل وإدراك وعواطف وانفعال واستدلال .. وهذا عني بدراسته مانسميه (علم النفس) المعاصر .. وهي بحوث موجودة في التراث الانساني قبل (علم النفس) المعاصر .

أما مايختص بالظاهرة الاجتماعية فلم يلتفت إليها أحد قبل ابن خلدون .

ولم يفطن أحد قبل ابن خلدون إلى وجود قوانين عامة تحكم (النظم الإنسانية) في حالة (الاجتماع) وهي مايطلق عليه (قوانين الظاهرة الاجتماعية) .

وابن خلدون بذلك هو :

المكتشف الأول لوجود هذه القوانين . وأيضاً هو : القائل الأول من بني البشرية بهذه القوانين الاجتماعية .

---

(١) معنى القانون العلمي بصفة عامة ، هو : الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والمقدمات بنتائجها اللازمة . ويعرفه (مونتسكيو) بأنه الذي (يعبر عن العلاقات الضرورية التي تنجم عن طبيعة الأشياء) .

ويكفينا به اعتزازاً : أنه أول من بحث الظاهرة الاجتماعية لا ليصفها ولاليدعوا إليها ، ولا لبيان ماينبغي أن تكون عليه .

لكنه درس الظاهرة الاجتماعية دراسة (تحليلية) بغرض الكشف عن طبيعتها ، والقواعد والقوانين التي تحكمها وتخضع لها .

فطبق بذلك (منهج البحث العلمي) لأول مرة في تاريخ الإنسانية في مجال (الاجتماع الإنساني) فارتقى على يديه إلى درجة العلوم الأصيلية .

إبن خلدون ونشأة علم العمران :

علمنا كيف استطاع ابن خلدون أن ينشيء علماً جديداً هو (علم العمران) وكيف قادته : خبرته وتجاربه وعبقريته إلى استجلاء (قوانين) هذا العلم . وكيف توصل إلى معنى (الظاهرة الاجتماعية) ومثل لها .

وهنا نحب أن نشير إلى أن ابن خلدون كان يدرك مايفعل ، على معنى : أنه قد وقف على البحوث التي سبقته ووجد أن العلوم الانسانية تحتاج إلى «علم» جديد فشرع في ابتكاره ، والدلالة عليه في (مقدمته) .

وابن خلدون يقول عن هذه النشأة :

(وكأن هذا علم مستقل بنفسه فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني ، وذو مسائل وهي بيان مايلحقه من العوارض لذاته واحدة بعد أخرى . وهذا شأن كل علم من العلوم وصفياً كان أو عقليا) [(١)] .

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقرر صدق ما بدأناه من أن بحوث ابن خلدون في (مقدمته) يتألف منها (علم مستقل) جديد غير مسبوق من أحد وقد سماه ابن خلدون (علم العمران البشري) أو (الاجتماع الإنساني) ..

---

(١) وقد نظم علماء مناهج البحث في الإسلام قواعد كل علم فقال أحدهم :

إن مبادي كل فن عشرة .. الحد والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبه والواضع .. والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى .. ومن درى الجميع حاز الشرفا

وهو العلم الذي يسمى في العصر الحديث باسم (علم السوسيولوجي La Sociologic) أو علم الاجتماع .

ويقول ابن خلدون في بيان سبقه :

(واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغرض .. وليس من علم الخطابة ولا من علم السياسة المدنية) .

إنصاف معاصر :

وفي مقام إنصاف (ابن خلدون) يقرر أحد المهتمين بدراسة علم الاجتماع أنه قد درس البحوث التي سبقت ابن خلدون فلم يعثر على ماوجده عند ابن خلدون ويقول :

(والحقيقة أننا لم نعثر على بحث سابق لبحوث ابن خلدون قد تناول ظواهر الاجتماع في مجموعها ، وعلى أنها موضوع شعبة مستقلة ودرسها كما تدرس العلوم الرياضية والطبيعية ظواهرها أي : للكشف عن طبيعتها وماتخضع له من قوانين) [1] .

الأسباب العلمية التي دعت ابن خلدون لإنشاء علم العمران :

لايمكننا أن نتصور إنساناً عاقلاً يسعى لإنشاء شيء (ما) دون أن يكون لديه الباعث القوي على هذا الإنشاء أو العمل . فما بالنا إذا كان المنشيء مثل (ابن خلدون) والمنشأ علم جديد مثل (علم الاجتماع) .

وقد لخص ابن خلدون الأسباب التي دعته لإنشاء علم العمران وضرب الكثير من الأمثلة ، ونلتقط منها (العناوين) التالية :

(١) حرص ابن خلدون على تخليص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة بإنشاء

---

(١) راجع ص١٠٥ من ك (ابن خلدون) ، للدكتور علي عبدالواحد وافي .

أداة (ميزان) يستطيع بفضلها الباحثون والمؤلفون أن يميزوا بين ما يتفق مع ظواهر الاجتماع وبين مايناقض هذه الظواهر .

وابن خلدون لاحظ أن الكتب التاريخية قد اشتملت على أخبار غير صحيحة ووجد أن أسباب قبولها تدور حول الأمور التالية :

٢ - مايجعل المؤلف أو الباحث يقبل الخبر الكاذب (التشيعات للآراء والمذاهب) وهذا سبب يرجع إلى ذات الإنسان وإلى أنقياده للأهواء . فإنه لو اعتدل لاستطاع أن يمحص ويدقق .

والنجاة من هذه (الكبوة) تنبع من الإنسان نفسه .. وذلك بقيامه بتجريد نفسه من الهوى والتشيع . والالتزام بالحق وأن يبحث في الظاهرة دون (نية) مبيتة سابقة .

٣ - أن يجهل الباحث : القوانين التي تخضع لها الظاهرة الطبيعية كالفلك وغيرها ، فيتقبل (خبراً) تكذبه بداهة هذه القوانين مثلما نقل (المسعودي) المؤرخ عن (الاسكندر) الأكبر أنه عندما أراد بناء (الاسكندرية) اتخذ تابوتاً خشبياً . وفي باطنه (صندوقا زجاجياً) وغاص فيه إلى عمق البحر . حتى يرسم صور الدواب البحرية الشيطانية .. التي رآها وعمل تماثيلها من أجساد معدنية ففرت تلك الدواب فتمكن من بناء مدينة الاسكندرية بعد فرارها ...

ويصف ابن خلدون هذه الرواية بأنها (أحاديث خرافة مستحيلة) ويستدل على هذا بموضوعية علمية فيقول : (إن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي . وتسخن روحه بسرعة لقلته ..) [1] .

٤ - أن يجهل الباحث القوانين الاجتماعية التي تخضع لها الظاهرات الاجتماعية ويعتقد أنها تسير حسب الأهواء والمصادفات متجاهلاً القوانين الثابتة .

---

(١) يلاحظ أنه لم يكتشف إمكانية التنفس في أعماق البحر بطريق أنابيب (الأوكسجين) إلا في العصر الحديث .

فيقعون في الخطأ التاريخي الكبير مثلما نقل عن الكثير من المؤرخين من أن (موسى) عليه السلام أحصى بني إسرائيل في (التية) [1] . فوجد القادر منهم على حمل السلاح - ابن عشرين فما فوقها - مايزيد عن (ستمائة ألف) وذلك بعد (٢٢.) سنة وهي مدة مقامهم بمصر كما أورده (المسعودي) .

ويرى ابن خلدون أن هؤلاء المؤرخين لو علموا القوانين التي يسير عليها (التجمع السكاني) ماأخطأو هذا الخطأ الشديد في (تعداد) بني اسرائيل .

وقد بنى نقده لهذا الخبر على أن مابين (اسرائيل) وموسى : أربعة آباء . فإنه : موسى بن عمران بن يسهر بن يافث بن لاوي بن يعقوب ويعقوب : هو إسرائيل وهذا النسب ورد في التوراة . التي ذكرت - أيضاً - أن مقامهم استمر بمصر (٤٣.) سنة (أربعمائة وثلاثين سنة) .

ويرى ابن خلدون أن هؤلاء الآباء الأربعة . وهذه القرون الأربعة طبقاً لقوانين الظواهر الاجتماعية لايكون (نتاجها) هذا العدد الكبير (مايزيد عن النصف مليون) . خاصة وأن موسى دخل (مصر) مع بني إسرائيل حتى يوسف (الأسباط والحفدة) وكان عددهم (سبعون شخصاً) [2] .

وبنوا إسرائيل بمقتضى قانون (مالتس) يصل عددهم في (٢٢.) سنة إلى (ستة وثلاثين) ألفا . إذا لم تأخذ في الاعتبار موقف الفراعنة من ذكور بني إسرائيل الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.. لأننا إذا أخذنا هذا في الاعتبار يكون العدد أقل بكثير عن (ستة وثلاثين) ألفاً .

----

(١) التيه هو المدة التي قضاها بنو إسرائيل في صحراء (سينا) وماجاورها تائهين لايعرفون لها (مُستقراً) ومدتها (أربعون عاما) يقول الله تعالى (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) سورة المائدة : ٢٦ .

(٢) هذا النقد يظهر لنا أن ابن خلدون لديه فكرة واضحة عن(قوانين تزايد السكان) وهي القوانين التي صاغها العالم الانجليزي (مالتس) (Maltos) ت سنة ١٨٤٣، . والذي ذكر أن السكان يتزايدون كل (خمسة وعشرين) عاماً بنسب متوالية (١-٢-٣-٨-١٦) أي بنسبة التضعيف .. إذا لم يتدخل (عامل) خارجي وقد ذكر ذلك ابن خلدون قبل علماء الاجتماع المحدثين بعدة قرون .

ميدان القانون العلمي الاجتماعي عند ابن خلدون :

ويخلص ابن خلدون من خلال هذه الأمور كلها إلى أن (القانون) في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بأن تحكم بالإمكان أو الاستحالة . أن ينظر في الاجتماع البشري هو (العمران) . ونميز مايلحقه لذاته وبمقتضى طبعه ومايكون عارضاً لايعتد به . وما لايمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا : قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب . يوجه برهاني لامدخل للشك فيه ... وكأنه علم مستنبط المنشأة . ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لاحد من الخليقة) [1] .

---

(١) راجع ص١٨ من (مقدمة ابن خلدون) .

منهج
ابن خلدون في البحث

لجأ ابن خلدون بدافع عبقريته الذكية في بحث الظواهر الاجتماعية إلى : ملاحظة ظواهر الاجتماع عند الشعوب التي احتك بها وعاش بين أبنائها .

وتعقب بعد ذلك الدراسة الواقعية للظاهرة . تاريخ هذه الشعوب في العصور السابقة على عصره . وانطلق إلى تعقب كل (شبيه ونظير) في تاريخ الشعوب الأخرى التي لم يستطع الاحتكاك بها .

ثم وازن ابن خلدون بين هذا كله متأملاً مختلف شئونها للوقوف على طبائعها ووظائفها وعلاقاتها رابطاً بعضها ببعض شارحاً .. عوامل تكونها وتطورها واستقرارها ..

ويظل ابن خلدون يلاحظ ويلاحظ حتى يستخلص من هذه الأمور وغيرها ماتخضع له الظاهرة في جميع أحوالها من (قوانين) ثابتة . يمكن أن (تطرد) .

ويمكن إجمال منهجه في بحث الظاهرة الاجتماعية فيما يأتي :

أولاً : ملاحظة الظاهرة بطريق الحس وشواهد التاريخ على ظواهر الاجتماع . وهو مايمكن أن نسميه (جمع المواد الأولية لموضوع بحثه) من المشاهدات وبطون التاريخ .

ثانياً : إجراء العمليات العقلية في هذا المواد الأولية من حيث الربط والحذف والإضافة والتعليل .. حتى يصل بفضل النشاط العقلي (المجرد) إلى الغرض التي استهدفه من إنشاء (علم العمران) وهو : الكشف عن (القوانين) التي تحكم الظاهرة .

ويطيب لنا أن نذكر هنا : أن منهج البحث (الخلدوني) في دراسة الظاهرة الاجتماعية هو : المنهج المطبق الآن عند علماء الاجتماع المعاصرين كما فصلنا من قبل .

نقد ابن خلدون :

وقد أخذ على ابن خلدون بعض المآخذ التي يمكن أن يقع فيها كل من أراد أن يتضلع بمثل هذه المهمة الضخمة . منها :

(١) قصور بعض القوانين التي عممها عن أن تكون (عامة) لأنه لم يستقر كل جزئيات الظاهرة في جميع مجالاتها ....

(٢) عدم توفيقه في عنايته الكبيرة بإيجاد العلاقة الوثيقة بين الظواهر الاجتماعية . والبيئة الجغرافية . فقد بالغ في هذا الأثر كثيراً .

الاعتذار عن ابن خلدون :

ونذكر هنا في مجال الاعتذار عن (الكمال) الذي افتقد في بعض (قوانين) ابن خلدون .

ان ابن خلدون نفسه قد أحس بذلك . وأنه يدرك الطاقة البشرية وأنها لايمكن أن (تكمل) إلا بتضافر القوى البشرية .

ولذلك يعتذر ابن خلدون عن نفسه « فيقول » :

(عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول . الذي هو طبيعة العمران ومايعرض فيه . فقد استوفينا من مسائله ماحسبناه كفاء له . ولعل من يأتي بعدنا . ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم متين يغوص في مسائله على أكثر ماكتبناه . فليس على مستنبط الفن استقصاء مسائله . وإنما عليه تعيين : موضوع العلم وتنويع فصوله ومايتكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل ....) [1] .

وبهذا النص الخلدوني . يفصح ابن خلدون عن دوره في (علم الاجتماع)... ويحدد أدوار العلماء الذين يأتون من بعده . بوعي وفهم وإدراك شفاف .

ونحن من جانبنا نتفق مع جمهرة علماء النقد الاجتماعي الذين يذكرون أنه لايمكننا أن ننتظر الكمال المطلق من منشيء العلم .

---

(١) راجع ص٢٤ من (المقدمة) .

ويكفيه شرفاً وعلواً : أنه أقام العلم على دعائم قوية . ووضح (منهج البحث) فيه وعرض الظاهرة وتنوعها . والمسائل وكيفيتها . وقدم المثل الأعلى لما ينبغي أن تكون عليه الدراسة العلمية .

وجاءت نظريته الاجتماعية في نسيجها القوي أقرب إلى الكمال الإنساني في علم الاجتماع الانساني..

وعموماً : فإننا نستطيع أن نفخر بهذه العقلية الإسلامية التي استطاعت أن تؤصل لعلم الاجتماع (العمران) بقوة وبراعة وعبقرية .

ومايمكن لمنصف أن يعتقد أن هذه العقلية لم تنتفع بعلوم الإسلام ومناهجه فتمرس العقل . ويقع الوجدان . ونشط الفؤاد .

ومانجد كبير فرق بين (مناهج البحث) عند ابن خلدون ومناهج (التخريج) عند علماء الحديث .

فالإسلام هو الذي حث عبقرية (ابن خلدون) على تكشف (علم العمران) أي : (علم الاجتماع) .

ومانستطيع أن نتناسى نشأة ابن خلدون في المغرب والأندلس وكيف نقلت علوم المسلمين في نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة إلى (أوربا) عن طريق (الأندلس) .

وهل نستطيع الآن أن نجزم بعدم تأثر علماء الغرب الذي (رادوا) على الاجتماع في الغرب الحديث . رغم أن أوربا عرفت (ابن خلدون) من (الأندلس).
كما أننا لانستطيع أن ننكر - عقلياً - فضل السابق على اللاحق .

الفصل الثاني

موازنة
بين
(ابن خلدون وأوجست كونت)

ظلّ (علم العمران) الذي أنشأه (ابن خلدون) أكثر من أربعة قرون . يحوم حوله العلماء . دون أن يأتوا بمثله في شموله واستيعابه لجميع الظواهر الاجتماعية . وسلامة مناهجه في البحث .

وقد ظل الأمر كذلك حتى ظهر في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي العالم الفرنسي (أوجست كونت)[1] - (١٧٩٨-١٨٥٧م) فقام بعمل علمي في مجال (الظاهرة الاجتماعية) وانتهى إلى النتائج التي انتهى إليها ابن خلدون . وإن خالفه في بعض التفاصيل .

منهج أوجست كونت :

سبق أن أشرنا إلى دور (أوجست كونت) باعتباره من رواد (علم الاجتماع). فقد وجد (كونت) أمامه (طائفتين) من البحوث التي سبقته .

١ - الطائفة الأولى :

وهي التي اشتهرت باسم (فلسفة التاريخ) أي : دراسة الحضارة الإنسانية من ناحية تطورها .

فقام (كونت) بإكمال دراستها وتنقيحها وتخليصها من صبغتها الفلسفية [2] .

---

(١) يراجع في تفصيل الموازنة الدكتور علي عبدالواحد . في ك (ابن خلدون) .

(٢) المقصود بالتخلص من الصيغة الفلسفية أن الفلسفة تبحث عما ينبغي أن يكون . بينما (الاجتماع) يبحث عما هو (واقع) بالفعل فليست (الصيغة الفلسفية) تضاد العلم . كما قد يفهم من مفهوم التخليص .

وجمع مسائل (فسلفة التاريخ) تحت اسم (الديناميك الاجتماعي) أو علم (التطور الاجتماعي) (Dynami ue secclale) .

٢ - الطائفة الثانية :

وهي البحوث التي تناولت مجموعة معينة من الظواهر الاجتماعية فعمد إليها (كونت) وضمها إلى بعضها . وأكمل موضوعاتها وخرج حقائقها وأغراضها . وجمعها تحت إسم :

(الستاتيك الاجتماعي) أي : (علم الاستقرار الاجتماعي)

(La stetauesooiale)

وقد وحّد (كونت) بين أغراض هاتين الطائفتين . وضمها تحت لواء علم واحد . هو (علم الطبيعة الاجتماعية) مستعيراً هذه التسمية من أحد العلماء البلجيكيين الذي استشهر ببحثه في (الإحصاء الخلقي) وأثر تأثيراً مباشراً على (كونت) وهو (كتليه) (Quetelel .)

ولكن (أوجست كونت) عاد فأسماه (السوسيولوجيا) أي (علم الاجتماع) .

وقد ظن (كونت) أنه أول من أنشأ هذا العلم ولم يفصح عن أن كان قد علم .. أن عالماً مسلماً عربياً قد سبقه إلى هذا العلم [1] ..

وإذا كان ابن خلدون قد عرض علمه الجديد في (مقدمته) فإن أوجست كونت قد عرض علمه في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية)

(Cours de Philosophi Pesitives) .

ويعقب الدكتور وافي على هذا : بأن علم الاجتماع لم ينشأ كبقية العلوم : نشأة واحدة .

---

(١) إن الملاحظ أن علماء الغرب . لم يعترفوا أبداً بفضل أحد من علماء الإسلام عليهم . رغم أنهم وقفوا على (علوم) المسلمين من الأندلس ورادتهم هذه العلوم إلى (عصر النهضة) .

ولكن كانت لعلم الاجتماع : نشأتان :

الأولى : في القرن الرابع عشر الميلادي على يد ابن خلدون .

الثانية : في منتصف القرن التاسع عشر على يد (أوجست كونت) .

ونحن عندما نستعمل تعبير (النشأة) في الحالة الثانية فهذا من قبيل (المجاز) حيث إن نشأة الشيء هي دوماً نشأة واحدة ومايليها هو : البعث أو الإحياء أو الدعوة أو البث ... إلى غير ذلك من جهود العلماء في الإضافة والتحقيق والتنقيح ..

وقد لوحظ التوافق في الهيكل العام بين (ابن خلدون) و(أوجست كونت) .

ولوحظ - كذلك - بعض وجوه الافتراق . والتي لايمكن أن (تتضح) هذه الأمور إلا بإجراء موازنة سريعة بين هذين الرجلين ...

وستفيد الموازنة ابن خلدون في النقاط التالية :

أ - بيان أصالته وسبقه في البحوث الاجتماعية .

ب - استكمال الإشادة بفضل ابن خلدون على (علم الاجتماع) .

جـ - بيان المنشيء الحقيقي لعلم الاجتماع .

أولاً : الموازنة بينهما في مجال الظواهر الاجتماعية :

سنحاول أن نحصر الموزانة بين (ابن خلدون) وبين (أوجست كونت) في مسائل محددة عندهما ... حتى يمكن عقد (المقارنة) التي توقفنا على الأصالة والابتكار عند من يملك هذه الناحية .

١ - الموازنة في أسباب النشأة عندهما :

إبن خلدون :

علمنا أن الأسباب التي جعلت ابن خلدون ينشيء (علم العمران) هو : حرصه على تخليص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة وتحديد (أداة) يمكن للباحثين والمؤلفين أن يميزوا بها بين الصدق والكذب دون أن يمس (الدين) .

أوجست كونت :

الذي دعاه إلى إنشاء (علم الاجتماع) حرصه على: إصلاح المجتمع وتخليصه من أسباب : الاضطراب والفساد ولاسبيل للإصلاح الاجتماعي . إلا بإصلاح الفكر الإنساني إذ الفكر أساس الجهاز الاجتماعي فقام بدراسة الظاهرات دراسة وضعية . بعد أن نقد بعنف (الطريقة الدينية الميتافيزيقية) واعتبرها من أسباب الخطأ في دراسة وسائل الإصلاح الاجتماعي ليمكنه الوصول بهذه الدراسة إلى القوانين التي تخضع له الظواهر الاجتماعية . وهذه الدراسة هي (علم الاجتماع) .

الموازنة :

(١) رأى كل منهما ضرورة دراسة الظاهرات الاجتماعية لاستخلاص القوانين التي تخضع لها الظاهرات . وأن تكون الدراسة (وضعية) خاضعة لمنهج البحث العلمي .

(٢) إبن خلدون عندما اعتبر الأسباب التي من أجلها أنشأ علم العمران . فأنه قد ركز على أسباب (واقعية) صحيحة وقد لاحظ آثارها السلبي في بلورة الحقيقة العلمية .

(٣) أما أوجست كونت . فقد اعتمد على الأسباب (الخيالية) المثالية (Idealeism)، التي استمدها من (الفلسفة التطورية) التي أخضع لها التفكير الانساني . من غير ملاحظة للواقع . أو اعتبار لحقائق الأمور..

(٤) إبن خلدون كان صادقاً عندما ذكر أنه أول من أنشأ هذا العلم ولم يسبقه أحد إلى هذه الدراسة .

(٥) أما أوجست كونت . فقد (وهم) عندما ذكر أنه أول من أنشأ هذا العلم ...

خاصة وقد سبقه في أوربا بعد ابن خلدون البلجيكي (كتليه وكوندورسيه ومنتسكيو . الفرنسيان) . حيث بلغت الدراسة الوضعية للظاهرة درجة كبيرة من النضج والكمال . تبشر بميلاد (علم اجتماعي) جديد .

(٦) اعتمد ابن خلدون العالم المسلم الدراسة الدينية واعتبر الوحي النبوة والمجال الميتافيزيقي .

بينما ألغى (كونت) الجانب الميتافيزيقي رألغى (الدين) كحقيقة علمية تعين الباحث وإن كان درس (الظاهرة الدينية) كوجود اجتماعي إنساني فقط .

٢ - الموازنة بين الموضوع والمنهج والغرض عندهما :

أ - الموضوع :

موضوع الدراسة الوضعية عند (ابن خلدون) وكذلك (كونت) هو : (الظاهرة الاجتماعية) أو (واقعات العمران) ولم يحاول أحدهما أن يعرف الظاهرة . على النحو الذي وجدناه عند (إميل دور كايم) .

وبينما اكتفى (ابن خلدون) بالتمثيل للظاهرة . اكتفى (أوجست كونت) بتقرير (شمول) دراسة الظاهرة ولم يستثن منها سوى الظاهرة الطبيعية والرياضة فقط وما وراء ذلك : فهو في نطاق علم الاجتماع .

أوجست كونت وعلم النفس :

ولذلك يرى أوجست كونت أن (علم النفس) المعاصر ليس موضوعاً مستقلاً . لأن مسائله وظواهره يتصل بعضها ببعض . ويتوقف على شئون الجسم وأجهزته العصبية ووظائفه العضوية وهذا كله يتجمل بالعلوم الطبيعية وبقية المسائل التي يحاول علم النفس بحثها وماتتصل أو يتوقف على الحياة الاجتماعية من هذا القسم يجب أن يلحق بعلم الاجتماع [1] .

ب - الغرض :

وغرض الدراسة عند (ابن خلدون وأوجست كونت) المباشر يتفق عليه كلاهما وهو: الكشف عن طبيعة الظاهرات الاجتماعية والقوانين التي تخضع لها الظاهرة .

ويلاحظ أن الغرض (النهائي) لكليهما قد اختلفا فيه فقد قصد ابن خلدون الكشف : عن القوانين لتصحصح الأخبار الكاذبة .

---

(١) يلاحظ أننا نجد من يقف من علم النفس المعاصر . (موقف الناقد) ..

وقصد أوجست كونت من الكشف : الإصلاح الاجتماعي بإصلاح الفكر الذي يعقبه : إصلاح الأخلاق .

جـ - المنهج :

ومنهج الدراسة عند (ابن خلدون وأوجست كونت) متفق الغاية .

فكلاهما يرى أن المنهج ينبغي أن يكون منهجاً وضعياً يقوم على الاستقرار والملاحظة والتجرد للبحث من عوامل التأثر والانحياز .

وقد التزم ابن خلدون بهذا المنهج تماماً . اللهم ماكان منه بعض الأمور وهو أمر شكلي لايؤثر في بنيان المذهب والنظرية .

بينما انحرف أوجست كونت عن هذا المنهج انحرافاً جوهريا بحيث لو أردنا تقويمه فإننا سنضطر إلى (هدم) جميع مابناه (كونت) وأنشأه على أسس جديدة .

٣ - الموازنة بين تقسيم الدراسة عندهما :

لوحظ في هذا المجال السمات الآتية :

(١) قسم ابن خلدون دراسته إلى أقسام يضم كل قسم طائفة من الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها . وقد (مزج) ابن خلدون بين الجانب التطوري والجانب الاستقراري للظاهرة . فالظاهرة عنده تدرس في (وحدة) . ولاسبيل للفصل فيها بينها وبين مرحلة من مراحلها .

(٢) أما أوجست كونت فقسم الأبحاث إلى (الديناميك والستاتيك) وفصل فصلاً جوهرياً بين هذين القسمين ويدرس كل قسم في (وحدة) بصورة منفصلة .

(٣) طريقة التقسيم الخلدونية هي أفضل المنهجين وألصقهما بالمنهج العلمي السليم الذي تصور أن (الفصل) في الظاهرة الاجتماعية متعذر .

وقد جاء المحدثون من علماء الاجتماع بعد (أوجست كونت) فساروا على الطريقة التي ابتدعها (ابن خلدون) .

ومن الغريب:أنهم ذكروا عن أنفسهم وهم يسيرون على تقسيم (ابن خلدون) أنهم : مجددون في منهج البحث الاجتماعي .

٤ - الموازنة في نتائج البحث عندهما :

هل وصل (أوجست كونت) إلى ماوصل إليه (ابن خلدون) من نتائج..؟.

(١) توصل (أوجست كونت) في دراسته للظاهرة الاجتماعية إلى الكشف عن قانون علم سماه (قانون الحالات الثلاث) وهو قانون ظاهر البطلان للآتي :

أ) أخطأ (كونت) عندما ذكر في قانونه : أن الإنسانية كلها تسير وفق نمط واحد في إدراك الظواهر وفي تطور هذا الإدراك . إذ أن اختلاف المجتمعات واضح وبيّن .

ب) لانتفق مع (كونت) في تطور كل حقيقة في التفكير الإنساني ومرورها في الحالات الثلاث التطورية إذ الحقائق الرياضية والبداهية وغيرها فهمت فهماً مباشراً في بادىء الأمر .

جـ) أرجع (أوجست) أن (الحالات الثلاث) وحدها هي التي (تردد) بينهما التفكير الانساني .

د) يسحب (كونت) قانونه على الجانب العقائدي الديني فيزعم أن فكرة (الألوهية) مرت بمراحل ثلاث من : التعدد إلى التوحد إلى التجريد [١] .

وهذا باطل فقد بدأت (العقيدة) بمرحلة واحدة هي مرحلة (التجريد) على يد آدم عليه السلام . ثم اختلف الناس . كما ورد في التنزيل ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبين مبشرين ومنذرين** ﴾ [٢] .

(٢) أما ابن خلدون . فكان أكثر تريثاً وموضوعية من (أوجست كونت) فلم يحاول أن يضع (قانوناً عاماً واحداً) يحكم ناحيتي : الاستقرار والتطور ..

---

(١) للأسف تابع أوجست كونت في زعمه عن التطور في الألوهية . الأستاذ عباس العقاد حيث ذكر الأطوار الآتية :١ - دور التعدد . ٢ - دور التمييز . ٣ - دور الوحدانية الناقصة . ٤ - دور الثنائية . ٥ - دور وحدة الوجود . ٦ - دور الأديان الكتابية التي بلغت بالتوحيد مرتقاه . راجع التفصيل في كتاب (الله) ص١٨ ومابعدها .

(٢) سورة البقرة : آية : ٢١٣ .

ولكنه - كما علمنا - قسم كل مجموعة متماثلة من الظواهر وربطها بقانونها الخاص بها .

وابن خلدون بذلك وإن تعددت (قوانينه) فإنه (توحد) لديه الصدق والحقيقة العلمية .

أما (كونت) رغم (توحد) قانونه فإنه (تعدد) الخطأ لديه ..

وقد حكمت ملاحظة الظواهر ابن خلدون . بينما تأثر (كونت) بمبادىء فلسفية خاصة به حالت بينه وبين الوصول إلى الحقيقية العلمية .

وكان (الخطأ) الذي وقع فيه ابن خلدون . مرجعه في الحقيقة إلى (نقص) الاستقراء . حيث اقتصرت الملاحظة على : النماذج التي شاهدها بنفسه واعتبرها كافية في إطلاق القانون . الذي يخضع الظاهرة .

وهذا ليس خطأ جسيماً فإن (الاستقراء التام) أمرٌ نادر بحكم مناهج العلماء .

تقييم :

حاولت من خلال ماسبق عرضه : أن أشير إلى وجود مايمكن أن نطلق عليه :

(علم الاجتماع الإسلامي) فهو بالفعل إسلامي النشأة . وإسلامي النزعة والروح . فقد رأينا : كيف قال : (علم العمران) بالجانب الميتافيزيقي وكيف انحرف (كونت) فاستبعده .

وهذا يدل على أن (علم الاجتماع) علم صحيح نافع يمكن أن يؤدي دوره للإنسان . ومايخلط فيه من نظريات تخالف (الدين) إنما هي من (انحراف) القائل بها . وليست من مبادىء أو ضرورات أو قوانين (علم الاجتماع المعاصر) .

فإن العلم الحقيقي : لايصادم العقائد الدينية ولايتعارض مع الدين في أي عصر ، أو مصر .

وهذا يوضح جانباً هاماً من جوانب الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي في رسالة (الداعي) إلى منهج الله تعالى .

إذ بينما ينهج (دعاة الإصلاح) منهجاً وضعياً يبتعد عن (الدين) .

يأتي (ابن خلدون) : فيوضح لنا : أن الإصلاح يمكن أن يتحقق بكل مناهج التحقق سواء أكان العلاج الإصلاحي إقتصادياً أوأسرياً .. أو لغوياً أودينياً .. فكل ظاهرة لها قانونها وعلاجها ومنهج بحثها .

وقد وضحت هذه المعاني بقوة من خلال (مقدمة ابن خلدون) التي بشرت بعلم العمران أعني : علم الاجتماع المعاصر . وقد وجدنا أن المعاصرين لم يضيفوا إلى جوهر عمل ابن خلدون شيئاً (يؤصل) له أو يعتبر ...
ولسنا ندري -عندئذ- أنكون مبالغين أو لانكون عندما نقرر بيقين الحق :-

أن ابن خلدون هو : منشيء علم الاجتماع في القرن الرابع عشر الميلادي وهو أيضاً : منشيء علم الاجتماع المعاصر في القرن التاسع عشر والقرن العشرين..

وهل يسعدنا أن نقرر في النهاية :

أن ابن خلدون كان فيلسوفاً مسلما ... وزار مصر ودرس في الجامع الأزهر الذي نشرف بالانتساب إلى (جامعته) .

وقد قيل لحكيم : ماالشرف ... ؟
فقـــــال : الشرف نسبة ..
ويقصـــــد : أن تنتسب إلى شيء (شريف) .

الفصل الثالث

(أهم رواد علم الاجتماع)

(عبدالرحمن بن خلدون)

(١) يعتبر ابن خلدون أول من نادى بضرورة إنشاء علم (العمران البشري) وهذا العمران يعني لديه (الاجتماع الانساني وظاهراته) ويصوغ موضوع هذا العلم من خلال قوله (إن الإنسان مدني - اجتماعي - بطبعه) .

(٢) ركز أيضاً على أنه يجب أن تكون النظرة للمجتمع نظرة شمولية مع التركيز على ماهو ضروري فيه .

ونجد ابن خلدون لايدرس الاجتماعي الإنساني إلا بقصد بيان مايلحقه من (العوارض والأحوال واحدة بعد أخرى) أي أن التركيب المعقد من الأحوال في العمران هو المجال المميز الذي يسعى « ابن خلدون » لكشفه وتهيئة المستلزمات المعرفية له .

وهو في تأكيده لأهمية الاجتماع الانساني يركز علي شيئين هامين : وهما (الحاجة والعمل) وفي ذلك يقول عن الحاجة (لأن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحقيق حاجته)

أما بالنسبة للعمل فيقول (الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه - وإنهم - أي الناس - متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك أي أن الحاجة والعمل تعتبران مقولتان أساسيتان للوجود الإنساني وبدونهما يستحيل وجود المجتمع البشري) .

(٣) تتضح نظرة « ابن خلدون » للمجتمع وظاهراته من توجهه العام الذي أثبته في أكثر من موضع في (مقدمته) بقوله (إن العمران البشري حقيقة متعلقة طبيعية) مثل أي علم من العلوم الطبيعية التي تخضع لقواعد البحث العلمي .

(٤) وجد (ابن خلدون) في تغير العمران حقيقة أساسية في نظرته إلى العمران البشري . لأن أحوال الأمم ونظمها ونحلها لاتدوم على وتيرة واحدة . إنما هو اختلاف على مرّ الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال .

ويرى أن سبب هذا التغيير هو أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه لأن السلطة السياسية المتمثلة في « الحاكم » تلعب دوراً في الحفاظ على العمران وفي تغييره .

(٥) ركز (ابن خلدون) في تفسيره لتطور العمران وتغييره على عدة عوامل أساسية ترتبط (بالعصبية) وفي هذا يقول :
(إن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون - والمزاج للمتكون لايصلح إذا تكافأت العناصر . فلابد من تغلب أحداها وإلا لايتم التكوين) .

معنى ذلك - عند ابن خلدون - أن الصراع القائم على التناقض أساسي في تكوين العمران البشري وهو أمر (نعتب) عليه بسببه .

عناصر المنهج عند ابن خلدون :

(١) يؤكد (ابن خلدون) أن على الباحث ألا يقبل شيئاً على أنه حق إلا بعد أن يتأكد بوضوح أنه كذلك .
أي : ينبغي ألا يتأثر بآراء مسبقة أو يتخذ من آراء الآخرين غير المؤكدة أساساً لدراسته .

ولذلك كان (ابن خلدون) يقرأ للمفكرين الآخرين بقصد (المحاورة والكشف) وفي ذلك يقول : (فلاتثقن بما يلقى إليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه) .

(٢) أكد ابن خلدون على ضرورة الأخذ بمنهج المقارنة بين ماضي(الظاهرة) وحاضرها . ودراسة تطور الظاهرات والنظم العمرانية دراسة تاريخية وذلك لأن العمران متطور متبدل .

(٣) يؤكد (ابن خلدون) أهمية وصول علم العمران إلى صوغ القوانين التي تحكم (العمران) لأن الوصول إلى هذه القوانين وظيفة من وظائف العلم .

وهو بذلك يرى أن الظواهر الاجتماعية مثل بقية الظواهر الكونية محكومة في مختلف نواحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التي تحكم ماعداها من ظاهرات الكون كظاهرات (الفلك والطبيعة والكيمياء) .

(٤) ركز (ابن خلدون) على أهمية الملاحظة التي تأتي علميتها عن طريقين هما :-

الأول : ويمثل في القيام بملاحظات حسية وتاريخية قوامها جمع المواد الأولية لموضوع البحث من المشاهدات ومن التاريخ .

الثاني: ويتمثل في القيام بعمليات عقلية يجريها العقل على هذه المواد الأولية . ويصل بفضلها إلى الغرض الذي قصد إليه من هذا العلم وهو الكشف عما يحكم الظاهرات العمرانية من قوانين .

خلاصة :

١) نستطيع أن نقول إن (ابن خلدون) حدد موضوع (علم الاجتماع) بدراسة (المجتمع الإنساني) أي : أن هذا الموضوع يتحدد لديه بما هو ضروري وماهو اجتماعي .

٢) وأن المجتمع ليس ثابت الأحوال ولكنه متحرك بنظام -ديناميك- ومتغير.

٣) أن الصراع عند ابن خلدون بين العصبيات يلعب دوراً بارزاً في تدبيره وتنميته .

٤) أنه حدد التوجيه المنهجي لهذا العلم بالملاحظة والتحليل والتفسير في إطار تاريخي - حتى يمكن الوصول إلى القوانين التي تحكم هذا المجتمع .

ولكنه بالرغم من تألق (ابن خلدون) نظرياً وعلمياً إلا أن هذا الطريق الذي سلكه لم يحاول آخرون السير فيه وتنميته خاصة من (العرب) ولو حدث ذلك

لكان (لعلم الاجتماع العربي) مكانة وشأناً لا في تاريخ العلم فحسب بل في حضارته ومستقبله أيضاً .

وهذا القصور من الذين أتوا بعد ابن خلدون .. لايسلب (ابن خلدون) ريادته لعلم الاجتماع العالمي . وأنه أول إنسان على الأرض بشر بعلم جديد هو (علم العمران) .

ويكفيه أن الذين أنشأوا (علم الاجتماع) في العصر الحديث لم يخرجوا في قوانين العلم العامة . عما قال به (ابن خلدون) في (مقدمته) وهذا يعقد له (الريادة) بمنطق العلم والمنهج وسبق التاريخ .

وينبغي أن نعلم أن (ابن خلدون) كان يدرك ماتوصل إليه من علم جديد . وكان مع إدراكه هذا يشعر . بأنه توصل إلى الطريق الواضع لنشأته .
أما الكمال الذي يجب أن يكون عليه هذا العلم . فقد تمنى (ابن خلدون) أن يأتي بعده من العلماء مايكمل (مسيرته) التي بدأها .

ونؤكد هنا ما قاله ابن خلدون في مقدمته :

(عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو - طبيعة العمران - ومايعرض فيه . فقد استوفينا من مسائله ماحسبناه كفاء له . ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤمن بفكر صحيح وعلم متين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبناه . فليس على مستنبط الفن استقصاء مسائله . وإنما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله ومايتكلم فيه .والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده : شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل) .

علاقة الفلسفة بمذهبه الاجتماعي :

نجد أن الإطار الفكري الأساسي لدى « أوجست كونت » يقوم على دعائم الفلسفة الوصفية التي تنظر إلى جميع الظاهرات على أنها : خاضعة لقوانين طبيعية لاتتغير وعلى ذلك يجب أن تتركز مهمة الباحثين في أن (نحلل) بدقة ظروف الظاهرات لنجمع بينها عن طريق علاقات التشابه والتعاقب الطبيعية .

منهج أوجست الاجتماعي :

على الرغم من أن « أوجست كونت » هو الذي أعطى العلم الإسم المستخدم الآن . إلا أنه اهتم بالدعوة إلى العلم أكثر من اهتمامه بتحديد موضوع العلم .. وكان يرى:أن انفصال علم الاجتماع عن دائرة العلوم الاجتماعية الأخرى لن يكون عملياً ومرغوباً فيه إلا فيما بعد . ولهذا لايوجد لديه تحديدات واضحة للموضوعات الأساسية لعلم الاجتماع .

تصنيف أوجست كونت للعلوم :

صنف « أوجست كونت » العلوم في خمس مجموعات - وقد رتبها ابتداء من الأبسط إلى الأقل بساطة مبتدئاً بالفيزياء السماوية والأرضية تلتها بعد ذلك الفيزياء الميكانيكية والكيميائية - ثم الفيزياء العضوية والفيزياء الكميائية والحيوانية وآخيراً (الفيزياء الاجتماعية التي غير اسمها إلى «علم الاجتماع») .

وقد قسم دراسة علم الاجتماع إلى قسمين :

القسم الأول : الديناميك الاجتماعي :

ويختص بدراسة قوانين (الحركة الاجتماعية) والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية - والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها - أي : أنه يدرس المجتمع الإنساني في عمومه وبنيته الشاملة ومن ناحية تصوره وانتقاله من حال إلى حال .

القسم الثاني : الإستاتيكا الاجتماعية :

ويعني بها دراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها وباعتبارها (ثابتة) في فترة معينة من تاريخها .

(معنى : قانون الحالات الثلاث)

توصل (أوجست كونت) في دراسته إلى ما أسماه (قانون الحالات الثلاث).

ويعني بهذا القانون أن التفكير الإنساني في جميع نواحي المعرفة مر على ثلاث مراحل وهي

أ) مرحلة التفكير الديني .

ب) مرحلة التفكير الفلسفي .

جـ) مرحلة التفكير العلمي الوصفي .

فنجد أن الظاهرات عنده تفسر في مرحلتها الأولى أي (مرحلة التفكير الديني) بنسبتها إلى قوى خارجة عنها .

وفي المرحلة الثانية (أي مرحلة التفكير الفلسفي) كانت ترجع إلى النار ومعان مجردة وقوى متافيزيقية وعلل لايمكن إثباتها .

وفي المرحلة الثالثة (مرحلة التفكير العلمي) يفسر العقل الظاهرات بنسبها إلى القوانين التي تحكمها والأسباب المباشرة التي تؤثر فيها .

أثر قانون الحالات الثلاث في فكر أوجست :

وعلى أساس هذا القانون فقد اعتبر (كونت) أن التفكير هو: المحرك للمجتمع وصانع دوافعه - وكل ذلك كان نتيجة دراسته للجوانب الديناميكية للمجتمع .

أما دراسته للثوابت الاجتماعية أي « الأستاتيكا الاجتماعية » فقد أدت به إلى اعتبار أن الفرد والعائلة والدولة هي العناصر الأساسية لتكوين المجتمع .

وكذلك اعتبر (الفرد) شيئاً لاقيمة له إلا بوجوده وتعاونه مع الآخرين ومن أجل ذلك اعتبر (الأسرة) أهم الوحدات الاجتماعية في المجتمع .

أما المجتمع فتصوره وحدة حية ومركباً معقداً وأهم مظاهره : التعاون والتضامن .

منهج أوجست كونت الاجتماعي :

يتركز منهج « أوجست كونت » في الدراسة والبحث على الملاحظة والتجربة التي تقوم على منطق المقارنة بين الظاهرات والمجتمعات - وأخيراً التحليل التاريخي المنطلق من دراسة الأفكار وتحليلها كمقدمة أساسية لفهم التطور الاجتماعي .

ولكنه برغم إشارته إلى كل هذه الركائز فإنه اعتبر (الملاحظة) أهمها وأكثرها دقة .

غاية وهدف علم الاجتماع عند أوجست كونت :

بالنسبة لغايات وأهداف علم الاجتماع عند (أوجست كونت) فهي تتحد بشعار السياسة الوصفية التي ترى في النظام غاية ووسيلة لتحقيق التقدم .

كذلك كان هدف « كونت » من إنشاء علم الاجتماع هو : إصلاح المجتمع الذي هزته الفلسفات النقدية والتحركات الثورية ... من أجل ذلك اعتبر (كونت) الاتجاهات النقدية اتجاهات هدامة .

فكرة (الحرية والديكتاتورية) عند أوجست كونت :

ولذلك فإن علم الاجتماع عنده يجب أن يكون أداة للمحافظة على النظام . ويتمثل ذلك في المنطوق الأساسي لكلمة « وصفية » أي تعني الوقوف إيجابياً من النظام الاجتماعي القائم .

معنى ذلك : أن الكائن الاجتماعي يجب أن يندمج في شخصية متسلطة تسلطاً مباشراً ... ويجب تأكيد السلطة المركزية في كل الميادين .

ولهذا يعد (كونت) من بين من نادوا (بالحد) من حرية التفكير .

أي أنه نادى الكثير من علماء الاجتماع بضرورة محاكاة (علم الاجتماع) للعلوم الطبيعية .

فإننا نجد : أوجست كونت لايهتم بمفهوم (الضمير) وحركة الفكر الإنساني كمصدر لنشاط المجتمع .

وإنما يجب أن يسير المجتمع وفق نظام رتيب يضمن بقاءه. ولايتم ذلك عند - كونت - إلا إذا عاش المجتمع في ظل (حاكم) يلزم بهذا الثبات النظامي .

وبجانب هذا الإلزام لابد أن يسلب أفراد المجتمع مفهوم : الحرية ، لأنها تؤثر على النظام .

(إميل دور كايم)

١٨٥٨-١٩١٧م

إننا إذا نظرنا إلى كتاب إميل دور كايم (١٨٥٨ - ١٩١٧م) « قواعد المنهج في علم الاجتماع » الذي صدر سنة ١٨٩٥ نجد أن موضوعه الأساسي هو مناقشته لتحديد الظواهر الاجتماعية وطبيعتها وهو يبين بذلك الفرق الأساسي بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى التي تهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية .

منهج البحث عند دور كايم :

ويؤكد (دور كايم) في كتابه على : أنه إذا ما أراد علم الاجتماع أن يكتسب الطابع العلمي الحقيقي فإن عليه دراسة موضوعاته بنفس الطريقة التي تدرس بها العلوم الطبيعية موضوعاتها .

أي : أنه على علم الاجتماع أن يتخلى عن النظرة التأملية الاستنباطية وأن يبدلها بنظرة موضوعية تمكنه من دراسة الظواهر الملموسة التي يمكن إدراكها ومعالجتها في ذاتها .

ويرى (دور كايم) : أنه توصل إلى معرفة الظواهر التي تتمثل في قوالب العمل والتفكير التي تبدو للفرد وكأنها شيئاً خارجياً أي أنه يحس بارتباطه الشديد بها دون أن تكون نابعة منه برغم أنها تمارس عليه فهو لايستطيع الفكاك منه ويقول دور كايم (إنه من الصعب فهم هذه الظواهر من خلال «الوسط الداخلي» للجماعة فقط) .

أثر دور كايم على علم الاجتماع :

كان علم الاجتماع حتى ذلك الحين يهتم بتطور الجنس البشري ككل .

ولكن مفهوم «المجتمع» ذاته قد تغير نتيجة للتأثير الذي أحدثه (دور كايم) في علم الاجتماع .. ولذلك فقد بدت الجماعات وكأنها الوحدات الواقعية التي تؤلف في النهاية المجتمع الكبير .

ولقد رأى (دور كايم) أيضاً أن علم الاجتماع يعتبر منهجاً يمكن تطبيقه في العلوم الطبيعية الأخرى أي أن هذه العلوم تستطيع الاستعانة بالمنهج السوسيولوجي (الاجتماعي) .

وقد أشار (دور كايم) أكثر من مرة إلى ماأطلق عليه « الفروع الخاصة » لعلم الاجتماع . وكان يحبذ ازدهار هذه الفروع وقال في هذا المعنى (إن علم الاجتماع لايستطيع أن يصبح علماً إلا إذا تخلى عن دعواه الأولى في الدراسة الشاملة للواقع الاجتماعي برمته .. وإلا إذا ميز بين مؤيد من الأجزاء والعناصر والجوانب التي يمكن أن تتخذ موضوعات لمشكلات محددة) .

وركز في كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع) على مسألة (تقسيم العلم) إذ أن علم الاجتماع شأنه في ذلك شأن كثير من العلوم الاجتماعية الأخرى التي لها من الفروع بقدر التنويعات الموجودة في الظاهرات الاجتماعية .

نظرة (دور كايم) إلى الظواهر الاجتماعية :

كان (دور كايم) ينظر إلى الظواهر الاجتماعية على أنها تمثل نتاجاً جماعياً يمارس التأثير على الأفراد تماماً كما يضطر الطفل إلى اتباع التقاليد والعادات السائدة في الأسرة أو الطبقة التي ينتمي إليها .

هذا (الضغط) الذي يخضع له الطفل هو في الواقع ذلك الذي يمارسه «الوسط» الاجتماعي أو « البيئة » للجماعة التي تسعى إلى تشكيل الطفل طبقاً لمشيئتها ، ويصبح الآباء والمدرسون بالتالي بمثابة ممثلين لهذه الجماعة ، لأنهم ينقلون إلى الطفل أفكار الجماعة عن الخير والشر .

تأثر دور كايم :

وأخيراً فإن (دور كايم) نستطيع أن نقول إنه تأثر بفكر الفرنسي «سان سيمون» - وهو صاحب نظريات في (علم الاجتماع) الذي اعتبره (دور كايم) أستاذه في علم الاجتماع - كما تأثر بفكر (جان جاك روسو) المفكر الاجتماعي .

الذي له اتجاهات اجتماعية لم ترق إلى مستوى (النظرية) الاجتماعية وقد أودع معظمها في كتابه الكبير (العقد الاجتماعي) .

وكذلك : تأثر بالمفكر الذي أبدع القوانين في صورة نظريات واشتهر في هذا المجال وهو : (مونتسكيو) .

وهكذا يظهر أن (دور كايم) كان حلقة وسط الحلقات التي اهتمت بدراسة (علم الاجتماع) المعاصر .

ولكنه كان الحلقة (الواعية) التي استجابت لروح العصر .

وبعد أن لمسنا ماعند (ابن خلدون) . وما عند أشهر (الروّاد) من أثر في نشأة علم الاجتماع .

نريد أن نَذْكُر بعض قواعد وموضوعات (علم الاجتماع) بالمعنى المعاصر . حتى ندرك مدى التشابه والتأثير وهذا العلم الذي يدعي - الآن - الغرب أنهم صانعوه ومنشئوه .

وعسى المسلم أن يدرك تاريخه العلمي وتراثه الحقيقي . فيستمسك بالذي هو خير .

وسيظهر للوهلة الأولى : أن ابن خلدون هو المنشيء لعلم الاجتماع . بمعناه الحديث . وقد ألهم بذلك كل من جاء بعده من روّاد علماء علم الاجتماع .

البـــــاب الثاني

الفصل الأول
منهج البحث في
علم الاجتماع

كيف نبحث في المشكلات الاجتماعية . وكيف نفحص الظاهرات ...؟...
إن خطوات البحث الاجتماعي ، تبدأ من (تحديد) الفكرة المراد بحثها .

١) إختيار مشكلة البحث وصياغتها :

تعتبر هذه الخطوة من أهم خطوات البحث لأنها تؤثر في جميع الخطوات التي تليها .

ومن المهم عند اختيار مشكلة البحث أن نحدد النقاط الرئيسية والفرعية التي تشتمل عليها .

وأيضاً صياغة هذه النقاط في مصطلحات واضحة محددة حتى يسهل وضع تصميم منهجي دقيق لدراستها من بحث الجوانب المختلفة لها .

٢) تحديد المفاهيم والفروض العلمية :

بعد اختيار مشكلة البحث وصياغتها من الضروري أن يحدد الباحث المفاهيم الأساسية المرتبطة بموضوع الدراسة وكلما كان هذا التحديد دقيقاً كلما ساعد ذلك على أن يكون البحث على أساس سليم ويسهل على المتابعين للبحث إدراك المعاني التي تضمنها البحث .

مرحلة وضع الفروض :

وبعد ذلك ينتقل إلى (وضع الفروض) وهذا يصلح سواء في الميادين التي بحثت من قبل أو الميادين الجديدة .. وفي هذه الحالة يقوم الباحث باستنباط الفروض التي يمكن اختيارها في بحوث تالية .

٣) تحديد نوع الدراسة أو نمط البحث :

نجد أن نوع الدراسة تتحدد على أساس مستوى المعلومات المتوفرة لدى الباحث وأيضاً الهدف الرئيسي للبحث .

فمثلاً في ميادين الدراسة الجديدة يقوم الباحث بعمل دراسة استطلاعية للكشف عن الظروف المحيطة بالظاهرة المراد دراستها .

كذلك التوصل إلى أهم الفروض التي يمكن إخضاعها للبحث .. وليتمكن من صياغة المشكلة صياغة دقيقة ، وإذا كان الموضوع سبق تحديده ببعض الدراسات . فينبغي أن يقوم الباحث في هذه الحالة بدراسة (وصفية) لتقرير خصائص الظاهرة وتحديدها . كذلك في حالة ما إذا كان الميدان محدداً من قبل فيقوم الباحث بدراسة تجريبية لاختبار صحة بعض الفروض العلمية .

وعمليات وضع الفروض ترتبط بنوع الدراسة فنجد أنه :

أ) في الدراسة الاستطلاعية : تخلو من الفروض .

ب) في الدراسة الوصفية :تتضمن فروضاً في حالة وجود معلومات لدى الباحث .

جـ) في الدراسة التجريبية : من الضروري أن تتضمن فروضاً دقيقة ومحددة وبعد ذلك تختبر هذه الفروض للتحقيق من صحتها بالمنهج الذي يصلح لاختبارها .

٤) تحديد منهج البحث :

معناه : المنهج هو الطريقة التي يتبعها الباحث لدراسة المشكلة .

أنواعه : أنواع المناهج التي تستخدم في البحوث الاجتماعية كثيرة منها :

١ - المسح الاجتماعي .　　٢ - المنهج التاريخي .

٣ - منهج دراسة الحالة .　　٤ - المنهج التجريبي .

٥) تحديد الأدوات اللازمة لجمع البيانات :

وهي الوسيلة التي يجمع بها الباحث البيانات التي تلزمه ويستخدم المشتغلون بمناهج البحث مفهوم (الأداة) للإشارة إلى الوسيلة المستخدمة في جمع البيانات وهي :

١ - الاستبيان .   ٢ - المقابلة .

٣ - مقاييس العلاقات الاجتماعية .

٤ - تحليل المضمون .   ٥ - البيانات الاحصائية .

وتختلف الأداة المستخدمة لجمع البيانات باختلاف نوعية المعلومات التي يراد جمعها .

ومن الممكن أن يعتمد الباحث على أداة واحدة لجمع البيانات أو على أكثر من أداة .

٦) تحديد المجال البشري للبحث :

ومعناه : تحديد مجتمع البحث . وقد يتكون هذا المجتمع من جملة أفراد أو عدة جماعات أو من عدة وحدات اجتماعية .

ويتوقف ذلك على المشكلة موضوع الدراسة ..

طريقتا الحصر والعينة :

وإذا كان جمع البيانات من جميع المفردات التي تدخل في البحث فإنه عندئذ تسمى هذه بطريقة (الحصر الشامل) .

أما إذا كانت دراسة حالات جزئية ثم يعممها على المجتمع الكبير فتعرف بطريقة (العينة) .

٧) تحديد المجال المكاني للبحث :

أي : تحديد المنطقة أو البيئة التي تجري فيها البحث سواء في (مدرسة) - أو مصنع - أو حي - أو قرية - أو مجموعة تشترك في سمة معينة مثل الطلاب تخصص (أعلام) أو طلاب تخصص (عقيدة وفلسفة) إلى غير هذه (النوعيات المصنفة) .

٨) تحديد المجال الزمني للبحث :

ويعني تحديد المجال (الزمني) البحث : الوقت الذي تجمع فيه البيانات ويلزم

في هذه الحالة أن يقوم الباحث بدراسة استطلاعية عن الأفراد الذين تتكون منهم العينة - فإذا كانت العينة . مجموعة من التلاميذ في مدرسة مثلاً فلا ينبغي أن يقوم الباحث بجمع البيانات اللازمة في فصل الصيف أو قرب نهاية العام الدراسي حيث يكثر غياب التلاميذ . فتضطرب بذلك النتائج حيث لاتمثل المجال المراد بحثه ..

٩) جمع البيانات من الميدان :

حيث إن مرحلة (جمع البيانات) تعتبر من أهم مراحل البحث الاجتماعي لأنه يتوقف عليها صحة النتائج ودقتها ... فإنه يجب أن تتوافر فيمن يقوم بجمع البيانات - سواء كان الباحث أو من ينيبه عنه - أو تتوفر لديهم الخبرة الكافية بالبحوث الميدانية وأن يكون لديهم من القدرات والمواهب الشخصية مايؤهلهم لجمع البيانات كحسن التصرف واللباقة مثلاً - وأن يكونوا على معرفة بهدف البحث وخطته - وكيفية تطبيق أدوات البحث .

كذلك ينبغي أن يقوم الباحثون بتهيئة أذهان المبحوثين بموضوع البحث وعمل توعية لهم عن طريق وسائل الإعلام إذا لزم الأمر .

١٠) تصنيف البيانات وتفريغها وتبويبها :

ويعتبر التصنيف والتفريغ والتبويب المرحلة النهائية للبحث أي : بعد مراجعة البيانات فإنه ينبغي أن تصنف بحيث تبدو خصائصها الرئيسية واضحة ، ثم ترتب وتقسم إلى (فئات) أي توضع المفردات المتشابهة في فئة واحدة . ثم (تفرغ) وتحصى الاستجابات ثم تبدأ مرحلة (التبويب) أي تبويب البيانات في (جداول) بسيطة أو مزدوجة أو مركبة .

١١) تحليل البيانات وتفسيرها :

بعد (جدولة البيانات) يقوم الباحث بتحليلها حتى يمكن تحديد الدرجة التي يمكن أن تعم بها نتائج البحث - وبعد ذلك يقوم بتفسير النتائج التي حصل عليها حتى يصل إلى العوامل المؤثرة في الظاهرة المدروسة .. والعلاقات التي تربطها بغيرها من الظواهر .

١٢) كتابة تقرير البحث :

توصلنا الخطوات التي عرضناها إلى خطوة (كتابة التقرير) عن البحث . وهنا يستطيع الباحث أن يسجل في موضوعية ما توصل إليه من نتائج وأن يقدم المقترحات والتوصيات التي خرج بها من بحثه .

وينبغي في النهاية أن يكون البحث قد سار وفقاً للحدود المقررة له من الوقت الزمني فلايكون (التراخي) الزمني طويلاً . لما هو معلوم ، من تغير الظاهرة حسب الزمن الطويل .. ضماناً لدقة النتائج من البحث الاجتماعي .

الفصل الثاني

(تعريف علم الاجتماع)

علم الاجتماع : هو العلم الذي يدرس النظم الاجتماعية أو النماذج الاجتماعية أو الظواهر الاجتماعية أو الوقائع الاجتماعية أو الأنماط الاجتماعية . وكلها بمعنى واحد (Patterns) التي تسود المجتمعات المختلفة مستنتجاً من هذه الدراسة القواعد والقوانين التي تخضع لها هذه النماذج في شأنها وتطورها [1] .

وهذا يجعلنا في حاجة لبيان معنى (الظاهرة الاجتماعية) .

فما هي الظاهرة الاجتماعية كما يصورها العلماء ...؟...

تعريف الظاهرة الاجتماعية عموماً :

هي : القواعد والاتجاهات العامة التي يتخذها أفراد مجتمع (ما) أساساً لتنظيم شئونهم الجمعية وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض والتي تربطهم بغيرهم .

تعريف إميل دور كايم للظاهرة الاجتماعية :

وقد عرف إميل دور كايم الظاهرة الاجتماعية بأنها عبارة عن (نماذج من العمل والتفكير والإحساس التي تسود مجتمعاً من المجتمعات والتي يجد الأفراد أنفسهم (مجبرين) على اتباعها في عملهم وتفكيرهم . بل ويجدونها مفروضة على إحساسهم) .

فمثلاً واجبات كل منا وحقوقه كمواطن وكزوج وكرب أسرة محدودة ومنظمة بقواعد وقوانين ولوائح خاصة وتسير وفق عرف وتقاليد معينة .

هذه القوانين واللوائح : وجدت قبل أن يوجد الفرد منا وهو (مجبر) على السير وفقها .

---

(١) راجع منهج (ابن خلدون) في تعريف الظاهرة والتمثيل لها . فإن التمثيل عند علماء عصره كان كافياً في التعريف .

تصنيف الظاهرة

* (ظاهرة) إنسانية (الإنسان)		* ظاهرة طبيعية (تبحث في العالم المادي) .			
إجتماعية	فسيولوجية	نفسية	فيزيقية	كيميائية	كونية
(يختلف من مجتمع لآخر مثل طريقة المأكل وهذه هي موضوع " علم الاجتماع " وهي ثمرة (العقل الجمعي) .	(لا تختلف من مجتمع لآخر مثل التنفس وهي وإن كانت عامة فلا يبحث فيها (علم الاجتماع)	نوع لا يختلف فيه : المجتمعات مثل (البكاء . أو الضحك)	نوع يختلف فيه المجتمعات . مثل : الحركة الفكرية ويسمى هذا النوع عند بعض علماء الاجتماع " ظواهر اجتماعية نفسية " وهذا النوع يدرس كمبحث من مباحث علم (علم الاجتماع) .	(الكثافة - الحجم الثقل)	(التفاعلات المادية) حركة الأجرام السماوية أو ما يشبهها

(أنواع الظاهرة الاجتماعية)

تنقسم الظاهرة الاجتماعية إلى عدة أنواع هي :

١) النظم العائلية :

وهي التي تتعلق بشئون الأسرة وتنسيق العلاقات التي تربط أفرادها بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم . وتحدد حقوق كل منهم وواجباته .

وذلك كنظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث - والنفقة وعلاقة الزوجين بعضهما ببعض من ناحية . وعلاقاتهما بالأولاد من ناحية أخرى .

ونحن إذا درسنا هذه القواعد في المجتمعات الإنسانية لألفيناها متعارضة أشد التعارض ففي المجتمعات الإسلامية يسمح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة وهي مايسمى بنظام (تعدد الزوجات) على حين لايسمح في بعض المجتمعات المسيحية للرجل أن يتزوج إلا بزوجة واحدة وهو نظام (وحدة الزوجة) وفي كثير من المجتمعات البدائية مثل قبائل (تودا) في جنوب الهند وبعض قبائل أفريقيا الشرقية يباح للمرأة أن تتزوج بأكثر من زوج . وهو نظام (تعدد الأزواج) وفي بعض المجتمعات البدائية أيضاً ساد نظام (الزواج الجمعي) وهو أن تتزوج مجموعة من الرجال بمجموعة من النساء وتكون النسوة (مشاعاً) بينهم .

وكذلك من ناحية (الميراث) فمثلاً نجد أن قواعد الميراث في الشريعة الإسلامية توصي للذكر مثل حظ الأنثيين بينما في المجتمعات (الجرمانية) تمنح كل الميراث (للإبن الأكبر) على حين نجد في معظم المجتمعات اللاتينية أن الميراث يوزع بالتساوي بين الأبناء والبنات .

٢) النظم الاقتصادية :

وهي تختص بالحياة المادية للمجتمع ووسائل تنمية ثرواته .وتتعلق بوسائل إنتاج هذه الثروات وتداولها وتوزيعها واستهلاكها .

ونحن إذا بحثنا في الظواهر الاقتصادية في المجتمعات الإنسانية في العصور التاريخية المختلفة لوجدنا تبايناً واضحاً فهناك مجتمعات إما رعوية أو زراعية

أو صناعية أو مجتمعات تشتغل بالصيد أو مجتمعات (بين بين) أي بين الري والزراعة والصناعة ولكل من هذه المجتمعات نماذج - اقتصادية تختلف تمام الاختلاف بحسب الظروف المحيطة بكل مجتمع .

٣) النظم السياسية :

وهي التي تتعلق بنظام الحكم في الدولة وتنسيق سلطاتها وتحديد اختصاصات كل سلطة وحقوقها وواجباتها وصلتها بالسلطات الاخري كذلك علاقة الحاكم بالأفراد وعلاقة المجتمع بغيره من المجتمعات .

وإنه لكل مجتمع طريقته الخاصة في الحكم ففي بعض المجتمعات يسودها (الحكم الدكتاتوري) وهو الذي لا يستشار الشعب في أموره - بينما في بعض المجتمعات يسود (النظام الملكي) وهذه يوجد علي رأسها (ملك) ويتوارث أفراد الأسرة الرئاسة وفق نظام معين وبعضها يسير على (النظام الجمهوري) وهي التي يوجد على رأسها (رئيس للجمهورية) يعين عن طريق الشعب أو البرلمان مثلاً في بعض الدول تسود مبادىء المساواة التامة بين الأفراد . وبعض الدول مثل جنوب أفريقيا يوجد بها تفرقة عنصرية بين السود والبيض في الحقوق والالتزامات والقانون الذي يخضع له كل عنصر منها إلى غير ذلك من النماذج السياسية التي تسود المجتمعات .

٤) النظم القانونية أو القضائية :

وهي التي تشرف على شئون المسئولية والجزاء واجراءات التقاضي تحت هذه المعاني حيث إن لكل مجتمع نظام قانوني معين ففي بعض المجتمعات نجد (الدين) القائم يمثل في الآن نفسه ديناً وقانوناً يسير بين الأفراد في حياتهم الروحية والدينية .

وذلك كما هي الحال في الشريعة الإسلامية فالإسلام (دين ودنيا) إذ هو ليس مجرد دين يرسم العلاقة بين العبد وربه - وإنما هو دستور كامل للحياة الاجتماعية من سياسية واقتصادية وعائلية وأخلاقية - أما الديانة المسيحية فكانت معظم قواعدها قبل التبديل منصبة على علاقة الإنسان بربه .

٥) النظم الدينية :

وهي التي تتعلق بالحياة الروحية للمجتمع والعقائد وفهم العالم القدسي وماوراء الطبيعة وجمع ماتشتمل عليه الديانة التي يسير عليها المجتمع من قواعد وتعاليم وأيضاً المعتقدات القلبية الداخلية التي يؤمن بها الأفراد والطقوس التي يقومون بها .

وإذا درسنا الأفكار الدينية لوجدنا أن لكل مجتمع معتقداته الخاصة بالأشياء التي فوق الطبيعة كالخالق وعلاقته بالمخلوقات وبدء العالم وانتهائه .

فنجد أن بعض المجتمعات تدين بالديانة القائلة (بالثنائية) كالديانة الزرادشتية التي تقول أن هناك آلهاً للخير وآخر للشر . وتوجد بينهما المشاحنات والعراك وتنتهي بانتصار (إله الخير) دائماً .

ونوع آخر يقوم على فكرة أن عدد الآلهة مساوي لعدد الشعوب فإنه لكل شعب أو مجتمع إله واحد . كما كان عند (العبرانيين والعرب) في العصور الجاهلية .

وهناك الأديان التي تقول باله واحد مطلق مثل عقيدة دين (الإسلام) ويوجد من يقول بالالة ولكنها تختلف في تصويرها لواحدانية الاله .. وهكذا فاليهودية لها رأيها الخاص في وحدة الاله . وكذلك المسيحية . وعلاقة الوحدة بالأقانيم .. إلى غير ذلك من عقائد وأديان .

٦) النظم الأخلاقية :

وهي تدرس ماينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني في مجتمع من المجتمعات – فالأخلاق تدرس الحق والواجب وتبين لنا الخير والشر كذلك يدرس الضمير الإنساني والعوامل التي تؤثر فيه .

كذلك تدرس واجبات الإنسان نحو أسرته ووطنه . ثم نحو (ربه) .

ولكننا نجد أن علماء الاجتماع المحدثين وعلى رأسهم (دور كايم) أرادوا أن يجعلوا من الأخلاق (علماً وصفياً) أي : يدرس النظم والظواهر الأخلاقية في المجتمعات الإنسانية المختلفة ومحاولة استخلاص القوانين التي تخضع لها هذه النظم .

ونحن إذا درسنا النماذج الأخلاقية السائدة في كل شعب من الشعوب لوجدنا اختلافات عميقة بين كل شعب وآخر .

فهناك مثلاً شعوب بدائية لاتعرف القتل مثل : بعض قبائل الأسكيمو وذلك إذا قورنت بارتفاع نسب القتل في المجتمعات الحديثة .

٧) النظم اللغوية :

وهي التي تتعلق بطريقة التفاهم بين أفراد المجتمع ونقل أفكارهم بعضهم إلى بعض وتسجيل منتجات (القرائح) ومايصل إلى (التفكير) .

حيث إن لكل مجتمع طرقاً خاصة للتفاهم . وأهم هذه الطرق (اللغة) (اللسان) أو (الاشارات) .

ويلاحظ أنه كلما كان المجتمع بدائياً كلما غلبت فيه الطرق الإشارية على اللسانية في وسائل التعبير . كذلك نجد أن مفردات اللغة قليلة .

أما الشعوب المتطورة فتسود فيها الوسائل اللغوية . ونجد أن اللغة تصبح غنية بأسماء المعاني وأسماء الكليات المجردة - وكلما تطور المجتمع كلما دخلت في لغته مفردات جديدة وأكسب مفرداته القديمة معاني جديدة .

٨) النظم التربوية :

وهي التي تتعلق بالطرق التي يسير عليها المجتمع في تكون (الجيل الناشيء) وإعداده للحياة المستقبلة . ولكل مجتمع (نظمه) الخاصة به في التربية سواء من ناحية المواد التي تلقن للنشء أو من ناحية الوسائل المستخدمة في هذا التلقين - ولاشك أن المواد التي تلقن مرتبطة أشد الارتباط بالأهداف العليا للمجتمع .

كما أن وسائل التربية مرتبطة بالمواد أو الموضوعات التي تلقن وبالنظام الثقافي في مجموعه . ففي المجتمعات القديمة ومجتمعات العصور الوسطى كانت المواد النظرية هي السائدة وكانت مستوعبة كل مناهج الدراسة تقريبا . وذلك كالخطابة والسياسة والفلسفة والعلوم اللاهوتية .

أما في العصور الحديثة وتحت تأثير العصر الصناعي والمبادىء الرأسمالية فقد أصبحت (العلوم التطبيقية) ذات مكانة هامة في علوم الدراسة تفوق أحياناً مكانة (العلوم النظرية) وذلك مثل : علوم الميكانيكا والعلوم الخاصة بالحرف والصناعات المختلفة .

٩) النظم الجمالية :

وهذه التي يترسمها المجتمع في شئون (الجمال ومظاهر الفن) من أدب وشعر وموسيقى وغناء ونحت وتصوير وما يتصل بهذه الشئون .

كذلك الحال في أذواق المأكل والمشرب والملبس إذا أن لكل شعب ذوقه الخاص به ومايطيب لجماعة قد ترفضه جماعة أخرى . وكل ذلك متعلق تعلقاً وثيقاً بالحياة الاجتماعية السائدة في المجتمع .

وأكثر من ذلك فإن الأذواق تختلف في المجتمع الواحد من جهة لأخرى وذلك تبعاً لنوع الحياة الاجتماعية التي يحياها الأفراد . وهذا من شأنه أن يؤدي إلى اختلاف النزعات الجمالية من مجتمع لآخر .

١٠) النظم الخاصة ببناء المجتمع :

ويمكن أن يطلق عليها « نظم البنية الاجتماعية » أو « نظم التكتل » أوما تسميه مدرسة دور كايم (بالنظم المورفولجية) أو (المورفولجيا الاجتماعية) (La Morpholgio sociale) وهي التي تنظم الطريقة التي يتجمع بها الأفراد بعضهم مع بعض كالقواعد التي تنجم عنها ظواهر الكاثف والتخلخل في السكان بالنسبة للمساحة التي يشغلونها والقواعد التي تنظم شئون الهجرة من المدن إلى القرى وبالعكس ومن الدولة إلى خارجها .

لأن الهجرة من الأمور التي تطرأ على التكتل فتغير من أوضاعه .

وكالنظم التي يسير عليها المجتمع في إنشاء مواطن التجمع كالقرى والمدن والأمصار والمساكن والطرق التي يتبعها في تصميمها وأشكالها ومرافقتها ووظائفها وموانعها بالنسبة إلى الجبال والبحار والأنهار والبحيرات وجميع مايتصل بهذه الشئون .

تقسيم الظاهرة من حيث التقليد والعمل :

تحدثنا عن تقسيم الظواهر الاجتماعية من ناحية (وظائفها) اما إذا نظرنا إليها من ناحية علاقتها بالتفكير والعمل وجدنا أنها تنقسم إلى قسمين وهما :-

أحدهما :

يتمثل في قواعد تشرف على (التفكير الانساني) في أي شكل من القوالب التي يوجب المجتمع على الافراد ان يصبوا فيها تفكيرهم وحاجتهم لبعض ظواهر الطبيعة وما وراء الطبيعة . كالنظام الخلقي الذي يوجب على الفرد ان يعتقد أن الصدق فضيلة والكذب رذيلة . أو كالنظام الديني الذي يوجب على المسلم أن يعتقد أن (الله واحد مخالف للحوادث) .

القسم الثاني : ويتمثل في قواعد تشرف على (العمل الانساني) كالنظام الذي يوجب على من يريد الزواج أن يتعاقد في صورة خاصة من الطرف الآخر .

ملاحظة :

ويمكن أن تقسم الظاهرة الاجتماعية من زوايا اخرى كثيرة تشمل الناحية (التطورية وغيرها) .

ولكن الزوايا السابقة هي أهم زوايا النظر وهي كافية في بيان حقيقة هذه الظواهر واتساع نطاقها وكثرة أنواعها .

خواص
الظواهر الاجتماعية

(١) عامة وجمعية :

أي : أنها يشترك في اعتناقها وتطبيقها وأفراد يضمهم مجتمع أي انها (عامة) في حقيقها و (جمعية) في الآخذ بها . فهي ليست من الأمور (الفردية) التي يختص بها الأفراد ويتميزون بها بعضهم عن بعض كالظواهر النفسية المتعلقة بالإدراك والوجدان والنزوع فلكل فرد ظواهره الخاصة به في شئون تفكيره وتخيله وتذكره وانفعالاته وعواطفه ... إلى آخر هذه الظواهر الذاتية .

وبهذه (الخاصة) تختلف الظاهرة الاجتماعية التي يدرسها علم الاجتماع عن الظاهرة النفسية التي يدرسها علم النفس .

بالرغم من اتفاقهما في أن كلتيهما ظواهر إنسانية وأيضا في اعتبار علم الاجتماع . ان كل منهما تتمثل في أنماط للتفكير والسلوك حيث إن الظاهرة النفسية أمور فردية يمتاز بها الأفراد بعضهم عن بعض وتجري في داخل كل فرد منهم في صورة تختلف عن جريانها في فرد آخر في حين أن الظواهر الاجتماعية أمور عامة يشترك فيها جميع من يضمهم المجتمع من أفراد .

(٢) إلزامية إجبارية (الضغط الاجتماعي) :

الإلزام معناه.أن الفرد يشعر بأنه (مجبر) عليها وأن كان أحيانا لا يلمس هذا الشعور في كثير من الظواهر لأنه تعود عليها وألفها فاصبحت (عادية) بالنسبة إليه - وهذا الجبر الذي يحس به الأفراد هو ما يسميه علماء الاجتماع (بالضغط الاجتماعي) .

وهو ذلك الإلزام الأخلاقي . أو المعنوي الذي يشعر به الأفراد عندما يقدمون على عمل من الأعمال فيشعروا أن عليهم أن يتبعوا سلوكا معينا

(٣) تاريخية :

كل ظاهره تمثل فترة تاريخية من حياة المجتمع . فهي تعد بداية ونهاية لسلسلة أو لعدة سلاسل متتابعة من تاريخ المجتمع وهي التي تضمن وراءها تاريخا طويلا وعادات وتقاليد .

(٤) ناتجة عن الوسط الاجتماعي :

أى : أنها لم تكن لتوجد لو أن الأفراد ظلوا بعيدين الواحد عن الآخر فالقانون مثلا لم يكن ليوجد بدون مجتمع يشتمل على أكثر من فرد لأنه ينظم العلاقات المدنية بمعناها العام بين الأفراد .

فوجوده إذن يقوم ويتوقف على وجود الحياة الاجتماعية .

(٥) إنسانية :

أي: يتميز بها المجتمع الانساني دون الحيواني لأنه كما رأينا تختلف من مجتمع لآخر وتختلف في المجتمع الواحد من فترة لأخرى وتتناقلها الأجيال فهي إذن : (صفات مكتسبة) وهو ليست (ولادية أو وراثية) كالظواهر التي يبديها الحيوانات فهي لا تعدو أن تكون استجابات وراثية مكتسبة من الوسط الذي يعيش فيه الحيوان .

تفسير الظاهرة
عند
المدارس الاجتماعية

بالرغم من أن كثيرا من العلماء الاجتماعيين قد درسوا الظواهر الاجتماعية دراسة علمية إلا أنهم قد انقسموا في دراستهم إلى (مدارس) مختلفة ونلخص المدارس فيما يأتي :-

(١) المدرسة الميكانيكية :

وأصحاب هذه المدرسة ينظرون إلى الظواهر الاجتماعية على أساس أنها: تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها (المادة) فكما أن قانون " لكل فعل رد فعل مساوى له في القوة ومضاد له في الاتجاه " في العالم المادي .

كذلك يوجد قانون مساوى في العالم الاجتماعي . وهم بهذا ينظرون إلى علم الاجتماع على أنه (ميكانيكا) اجتماعية .

وعلماء هذه المدرسة : وورد - وهنري : الأمريكيان

مارتون الايطالي - أرنست البلچيكي - هوبرت سبنسر الانجليزي .

(٢) المدرسة الحيوية :

وأصحاب هذه المدرسة تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيرات حيوية أو (بيولوجية) .

فأي مجتمع في نظرهم ما هو إلا عبارة عن (جسم حي) يتكون من عدة (خلايا) وهم (الأفراد) ومن أعضاء وهم (الجماعات) وتوجد وظيفة لكل عضو في المجتمع .

والعلاقة التي تكون بين الأفراد في المجتمع ما هي إلا العلاقة بين خلايا الجسم الواحد

وبالتالي فعندهم أن علم الاجتماع ليس إلا امتدادا لعلم الحياة .

ولذلك يؤمن كثير منهم ببعض مبادىء (داروين) عن البقاء للأصلح ...

وأهم علمائها . اسبيناس الفرنسي - شيفل الألماني - توفيكوف الروسي - فناكارور الإيطالي .

(٣) المدرسة النفسية :

وأعضاؤها يرون : أن علم الاجتماع عبارة عن : امتداد لعلم النفس . وهم يفسرون الظواهر الاجتماعية تفسيرا نفسيا . ويذكرون أنه يمكن دراسة الظاهرة من خلال دراسة نفسية الفرد .

حيث إن المجتمع ليس إلا مجموعة من الأفراد

ومن بين أعضائها جابريل الفرنسي - ماكدو جال الإنجليزي - جون استوارت ميل الإنجليزي .

(٤) المدرسة الاجتماعية :

وأصحاب هذه المدرسة ينظرون إلى الظواهر الاجتماعية على أنها ظواهر لها نوعيتها الخاصة . ولا تعتمد في قوانينها علي الأنواع السابقة وإن كان هناك تشابها في بعض مظاهرها سواء (المادية) أو (الحيوية) أو (النفسية) .

إلا أن القوانين التي تخضع لها تختلف تماما من القوانين التي تخضع لها الظواهر الأخرى .

وأبرز علماء هذه المدرسة الاجتماعية هو (إميل دور كايم) .

فــروع
علـم الاجتمـاع

إزدادت الفروع التي ينقسم اليها علم الاجتماع ازديادا كبيرا ولا زالت هذه الزيادة في اطراد مستمر . ونجد أن علماء الاجتماع يقسمون العلم بطرق مختلفة . فالعلماء الأمريكان مثلا يختلفون في تفريعاتهم عن العلماء الإنجليز والعلماء الألمان والعلماء الإيطاليين ... وهكذا .

وسنكتفي هنا بأن نتناول (تصنيف علم الاجتماع) عند العلماء الفرنسيين والأمريكيين فقط نظرا لأهمية ذلك .

أولا : تصنيف علم الاجتماع عند الفرنسيين :

يقسم الفرنسيون علم الاجتماع إلى الفروع الآتية :-

(١) علم الاجتماع العام :-

ويشمل تعريف العلم - وموضوعه وتاريخه - والمقصود بالوقائع أو الظواهر الاجتماعية - والعقل الجمعي - التمثلات الجمعية - مناهج البحث .

(٢) علم الاجتماع الديني :

ويشمل دراسة المبادىء الدينية التي تسود المجتمعات المختلفة وما يتعلق بها من نظريات وطقوس .

(٣) علم الاجتماع الأخلاقي والقضائي :

ويدرس النظم القضائية والنظم الأسرية والسياسة والعادات والتقاليد التي تسود مجتمعا من المجتمعات وتشمل مناشطه الأخلاقية والقضائية ... إلى غير ذلك .

(٤) علم الاجتماع الإحصائى :

ويعالج مشاكل الأسرة والجريمة من زواج وطلاق . ومواليد ووفيات من حيث قياس الوقائع والتعبير عنها بالأرقام أو بالرسوم البيانية مثل :

اختيار (عينة البحث) وصياغة كشوف البحث والاستخبارات التي تساعد في جمع المعلومات .

وهو في النهاية يعكس مناهج البحث في صورة رياضية بسيطة .

(٥) علم الاجتماع الاقتصادي :

وهو يدرس الظواهر والنظم الاقتصادية التي تختص بالحياة المادية للمجتمع ووسائل تنمية ثرواته وإنتاج وتوزيع واستهلاك هذه الثروات وكيف تتفق أو تختلف المجتمعات تجاه النشاط الاقتصادي .

(٦) علم الاجتماع اللغوي والجمالي :

وهو يهتم باللغة من حيث إنها من أهم طرق التفاهم بين أفراد المجتمع وهي تعكس ثقافة المجتمع وما يسوده من نظم .

ومن الناحية الجمالية فهو يدرس النزعات الجمالية عند المجتمعات وعلاقة ذلك بالحياة الاجتماعية .

(٧) علم دراسة البنية الاجتماعية :

وهو يدرس السكان من ناحية زيادتهم وتناقصهم وهجراتهم من المجتمع وإليه ومن أجزائه المختلفة أي الهجرات الداخلية والخارجية.

(٨) علم الاجتماع التربوي :

وهو يدرس النماذج التي يسير عليها بعض المجتمعات في وسائل تربيتها للنشء وهي تختلف من مجتمع لآخر وفي نفس المجتمع من فترة لأخرى .

(٩) علم الاجتماع النفسي :

ويدرس نفسية الجماهير ودراسة العمليات الاجتماعية وهي عمليات التفاعل الموجودة بين الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع وما يتأتى عنه من تنافس وتصارع وتعاون ... وغير ذلك .

ثانيا : تصنيف علم الاجتماع عند الأمريكيين :

إذا نظرنا إلى العلماء الأمريكيين نجدهم يهتمون في دراستهم لعلم الاجتماع بالموضوعات الآتية :-

(١) الدراسة البيئوية (البيئة) .
(٢) الدراسات الثقافية .
(٣) دراسة المجتمع (دراسة الجماعة - المجموعة - المركز الاجتماعي)
(٤) دراسة الشخصية .
(٥) العمليات الاجتماعية (الصراع - التكيف) .
(٦) تنظيم المجتمع (تكوين المجتمع - تفككه - إنحلاله - إعادة التكوين وإعادة البناء) .
(٧) التغير الاجتماعي (الحراك - التطور - الثورة - التقدم) .
(٨) دارسة المناهج (الإحصاء - الملاحظة - المقابلة أو الحوار) .

موازنـــة :

ولكننا يجب أن نؤكد على حقيقة هامة بعد هذه التصنيفات فإننا إذا نظرنا إلى هذه الموضوعات بالنسبة إلى المدرستين نجد أن علماء الاجتماع مهما كانت جنسياتهم فإنه لا يوجد خلاف كبير بينهم .

فنجد مثلا أن دراسة الشخصية عند العلماء الأمريكيين تدرس في الاجتماع النفسي عند العلماء الفرنسيين .

وهكذا نجد أن الخلاف لا يعدوا أن يكون اختلافاً في المنهج أو الطريقة في تناول العلم وأبحاثه .

الفصل الثالث

معنى الاجتماع الإنسانى

حاجة الفرد للجماعة الإنسانية :

عرفنا أن الإنسان اجتماعي بطبعه أي : لا يستطيع أن يعيش وحده بلا مجتمع - وأنه إذا أراد المجتمع أن ينزل أكبر أنواع العقوبة على فرد من الأفراد فإنه يقوم بعزله عن المجتمع - سواء بالسجن أو في منفى حتى ولو كان في قصور فاخرة - هذا العزل عن الحياة الاجتماعية يجعل الفرد شقيا (ولذلك كانت أهمية المجتمع والحياة الاجتماعية) .

وتظهر أهمية الجمع الإنساني أيضا في التنشئة البشرية - فقد لاحظ بعض علماء (الأنثربولوچيا) أي « علم دراسة الإنسان » أن هناك بعض الأطفال وجدوهم يعيشون في الأحراش في استراليا والهند بعيدا عن أي وسط إنساني وقد قامت بعض الحيوانات بإطعامهم بدافع من عاطفتها الطبيعية .

هؤلاء الأطفال نشأوا ولديهم من العادات ما تجعلهم أقرب للحيوان منهم للإنسان . وليست لديهم لغة سوى أصوات تشبه أصوات الطيور والحيوانات . كذلك يزحفون على أرجلهم وأيديهم ومستوى ذكائهم منخفض جدا فهو أقرب من مستوى ذكاء الحيوان .

من كل هذا : يتضح لنا أهمية المجتمع والجماعة بالنسبة لفرد . ولكن هذا الجمع الإنساني الذي يعيش فيه الإنسان يتخذ أشكالا مختلفة فقد يكون كبيرا أو صغيرا . قد يشغل مساحة كبيرة من الأرض أو حيز ضيق إذ أن هناك فروقا بين أنواع الجموع . فمن بين هذه الجموع توجد الجماعة والجمهرة أو الحشد والفئة الاجتماعية والمجموعة - والمجتمع .

وسنوضح المراد من كل هذه المعاني فيما يأتي :-

(١) الجماعـة :

الجماعة : جمع من الناس يقوم بين أفراده تفاعلا وتأثيرا متبادلاً - ويقوم هؤلاء الأفراد بأعمال مشتركة منظمة للوصول إلى أهداف خاصة بوسائل محددة والاتصال في الجماعة يكون اتصالاً (روحياً ومعنوياً) بعكس (الجمهرة) التي يكون الاتصال بها بطريق (شخص) بحيث يزيد من قوة تأثيرها على أفرادها .

(٢) الفئة الاجتماعية :

وهي جمع من الناس يمتاز أفرادها بصفة معينة - تجعل المجتمع ينظر إليهم نظرة خاصة - هذه الصفة المشتركة تفرق هذا الجمع عن غيره من الجموع الأخرى التي يعيش وسطها مثـل : المعوقين مثـلا - والحرفيين - أو الأرامل . ولكـن لا يوجد بين أفراد (الفئة الاجتماعية) تفاعل وتأثير مشترك بنفس القوة التي يوجد بها في (الجماعة) .

(٣) الجمهرة أو الحشد :

وهو جمع من الناس تجمعوا حول (حادث) مثلاً أو بعــد الخــروج مــن (مسرح) أو في (مظاهرة) وتتميز (الجمهرة) بأن الاتصال الشخصي بين أفرادها يكون أتم وأكمل بالنسبة للجماعة وتتسم الجمهرة بأنها (مؤقتة) أي : أن التفاعل بين أفرادها مؤقت وليس له صفة (الاستقرار) مثل الجماعة .

(٤) المجتمع :

كلمة (مجتمع) تطلق على جمع من الناس يتفاعل أفراده ويتعاونون على تحقيق أهداف خاصة بوسائل محددة مثل الجماعة . ولكن المجتمع يشمل أكثر عدد من الأفراد في بقعة معينة . ولهم (نمط ثقافي) معين ويتصرفون وفق نظم معينة يخضعون لها للوصول إلى حل مشكلهم .

إذن المجتمع قد يشمل على (عدد من الجماعات) تتكاتف وتعمل لصالح المجتمع . ولتحقيق آماله . وقد تنشق إحداها عن هذا الهدف وينبغي أن نوضح أن (الأرض) للمجتمع ليست شرطا ضروريا لتكوينه لأنه توجد هناك (مجتمعات متنقلة) .

(٥) المجموعة :

وتستخدم كلمة المجموعة هنا كمرادف لكلمة (مجتمع) ولكنها تختلف عنه في أنها يمكن أن تطلق على (قرية) أو (مدينة) أو (حي) وتسمى هنا (المجتمع المحلي) - ويمكن أيضا أن نطلق على (أمة خاصة) كالعرب مثلا - أو (طائفة معينة) أو (إقليم) - ... إلى غير ذلك ..

وهناك (المجموعة الجغرافية) أو (المكانية) التي لا بد لها من أن تشترك في نفس المكان .

(والمجموعة النفسية) وهي التي يكون فيها العامل النفسي هو الرباط الأساسي منها مثل « مجموعة المسلمين » في أنحاء الأرض فهم ليسوا متجاورين جغرافيا ولكن يربطهم رباط واحد ومصالح مشتركة ويدينون بدين واحد وعقيدة واحدة .

تصنيف
المجتمعات البشرية

إختلف العلماء في تقسيم وتصنيف المجتمعات البشرية . وأصبحت هذه العملية مسألة اعتبارية فلكل عالم من علماء الاجتماع رأيه في ذلك .

وسنذكر هنا أهم هذه التصنيفات :

(١) الجماعة الأولية والجماعة الثانوية :

هذا التقسيم يقوم على درجة (الاتصال والود) الموجودين بين أفراد الجماعة. وأول من قام به تشارلس كولي . Charles. Caly - وهويري : أن المجتمع الأولي يكون التأثير فيه بين أفراده وجها لوجه . ويقوم على التعاطف الودي بين أعضائه . وفيه يفنى ويذيب الفرد شخصيته كلية في شخصيته الجماعة وتقوم العلاقات الاجتماعية فيه على صلات الدم ، والأخوة ، والصداقة والمعرفة الشخصية .

والعواطف هنا تنشأ عن طريق المشاركة الوجدانية . وتصبح في النهاية روحا مشتركا ويعتبر (كولي) أن المجتمع (الأولي) يبدأ بالأسرة وجماعات اللعب عند الأطفال - ثم الجيران - ثم المجتمع المحلي .

أما المجتمع الثانوي فهو ذلك المجتمع المتسع في مساحته الكبيرة . وفي سكانه . حيث التأثير وجها لوجه يكون مستحيلا . والاتصال فيه ليس مباشرا وهو معقد في ثقافته ولا مكان فيه للمشاركة الوجدانية بين الأفراد كأعضاء (حزب سياسي) معين أو أبناء دولة من الدول فهي من الاتساع بحيث لا يمكن أن يتلاقي فيها الأفراد وجها لوجه حتى يتم بينهم المشاركة (الوجدانية) .

وأهمية هذا التقسيم : أنه يفسر لنا العلاقات (الوجدانية) في المجتمعات الإنسانية .

(٢) جماعة داخلية وجماعة خارجية :

صاحب هذا التقسيم هو (وليام جراهام سمتر - WOLIM.G.SEMTAR) وقد سمى الجماعة الداخلية (جماعتنا) والجماعة الخارجية " جماعة الآخرين " وأوضح ذلك بقوله (تنشأ عندنا تفرقة بين أنفسنا أو مجتمعنا أو المجتمع الداخلي والأفراد الآخرين أو مجتمع الآخرين أو المجتمع الخارجي) .

ويقول (فأفراد مجتمعنا تسودهم علاقة السلم والنظام والقانون والحكومة وتحدد علاقتهم الواحد إزاء الآخرين - أما علاقتهم بأفراد المجتمع الخارجي فهي علاقة حرب وسلب إلا إذا قامت اتفاقيات تغير هذه العلاقات) .

أي : أن روح (الود والعطف) تسود العلاقة بين أفراد المجتمع الداخلي بينما تسود روح (النزاع والنضال) والعدوان والتنافس علاقات أفراد المجتمع الداخلي بأفراد المجتمعات الأخرى .

ومثال ذلك واضح في الخلافات الدولية على مر التاريخ وأيضا بين الجماعات المختلفة مثل جماعة العمال ... مثلا .

وأهمية هذا التقسيم : في أنه يفسر لنا تطور العلاقات بين الشعوب والنقابات المختلفة .

(٣) الجماعة البسيطة والجماعة المركبة :

وهذا التقسيم قال به (دور كايم) والمجتمع البسيط في نظر (دور كايم) وهو الذي لا يمكن أن ينقسم إلى أجزاء أقل منه - ولا يوجد به علاقات تدل على أنه مركب . فإذا أخذنا (المدينة) كمثال (للجماعة المركبة) نجد أنها كانت عبارة عن عدة (قرى وكفور) ضمت إلى بعضها وهذه القرى كانت بدورها (جماعات مركبة) لأنها كانت عبارة عن (عدة قبائل) تجمعت مع بعضها .

هذا المجتمع البسيط الذي يقصده (دور كايم) مجتمع (وهمي) لأنه ليس من السهل أن نجده في المجتمعات وقد أسماه دور كايم (GLAN) أي. (معشر) ورغم كونه مجتمعاً وهمياً فهو لازم (الافتراض) حتى يكون

بمثابة نقطة البداية لإنشاء سلم اجتماعي تتدرج فيه المجتمعات من البسيطة إلى المعقدة . وهكذا .

(ويقال: إن هذا المجتمع البسيط موجود في بعض الأوقات عند الإسكيمو).

والمجتمعات المركبة تتدرج من المعشر إلى العشيرة . إلى الاتحاد إلى القبيلة .. إلى القرية .... إلى المدينة ... وهكذا .

ويفيد هذا التقسيم في أنه يبين لنا : كيفية اندماج المجتمعات البسيطة في مجتمع واحد مركب وشروط ومدى نجاح هذا الاندماج .

(٤) جماعة طوعية وجماعة تلقائية :

والجماعة الطوعية هي التي ينتمي إليها الفرد برغبته كأعضاء (نادي) مثلا أو (جمعية خيرية) .. أو (هيئة سياسية) وهذه الجماعات تلعب دورا واضحا في كل نواحي الحياة الاجتماعية .

أما الجماعة التلقائية فهي تمثل الأسرة والقرية التي يولد فيها الفرد والطبقة المهنية والاجتماعي التي ينتمي إليها الإنسان .

وأهمية هذا التقسيم : تتضح عند دراستنا لأثر هذه الجماعات على المخترعات الحديثة .

(٥) جماعات تنقسم بحسب إضافتها إلى غيرها وهي :-

(أ) جماعات ذات نزعة اجتماعية :

وهي الجماعة التي تشترك بنصيب في بناء المجتمع . وتعمل على تقدمه ورفاهيته وموقفها من الجماعات الأخرى: إيجابي إنشائي .

(ب) جماعات تدعي النزعة الاجتماعية :

وهي التي تشارك المجتمع الكبير في حياته لكي تستفيد من هذه المشاركة - أي تعيش عالة على المجتمع وعلى غيرها من الجماعات الأخرى .

(جـ) جماعات غير اجتماعية :

وهي التي تعيش وحيدة ومنفصلة عن غيرها من الجماعات الأخرى مثل قرية نائية ومعزولة .

(د) جماعات ضد النزعة الاجتماعية :

وهي التي تعمل ضد راحة المجتمع ورفاهيته وتقدمه مثل جماعة اللصوص والمخربين .

وأهمية هذا التقسيم أنه : يفيد عند دراستنا للعمليات الاجتماعية فتقوم بقياس تأصل هذه الروح في المجتمع الكبير بقدر اشتراك جماعته المختلفة في بنائه بنصيب ايجابي .

(٦) جماعات متدرجة :

وهي التي يكون لكل فرد فيها درجة اجتماعية أو مركزا اجتماعيا خاصا يفرقه عن غيره من الأفراد الآخرين ، أي أن (الجماعة) تتكون من (فئات) .

وقد قسمها الاجتماعيون إلى نوعين : رأسي مثل : فئات السن الواحدة ونوع أفقي وهو الذي يظهر فيه عنصر الارتفاع والانخفاض والفئات هنا مرتبة بتدرج . طبقا لنظام خاص إبتداء بالعليا وانتهاء بالدنيا .

وهذه الفئات هي التي تسمى (طبقات) اجتماعية . هذه الطبقات الاجتماعية أما أن تكون (مقفلة) كالنظام الذي يقوم على تقسيم الجماعة إلى طبقات مهنية فتتخصص كل منها في مهنة معينة ولا يسمح لأفراد إحدى الطبقات المهنية إلا بالعمل فيها . ولا بد أن يتم الزواج في داخلها ، هذا النظام المقفل محدود . وإذا حدث يكون : (ظاهرة) باعثة على الدراسة الاجتماعية ويظهر معنى (الطبقة المقفلة) في نظام (الطبقات) عند الهنود فانه لا يسمح لفرد أن ينتسب إلى (طبقة أخرى) أو تكون الطبقات (مفتوحة) أمامه للإنتقال إلى غيرها أي تكون الطبقة هنا فئة اجتماعية مفتوحة . وليس هناك ما يمنع أحد أفراد طبقة معينة إذا تغير مركزه الاجتماعي إلى الأعلى أو إذا أثرى أن ينتقل إلى طبقة

أخرى وإذا كان (القانون) لا يعترف بهذه الطبقات إلا أن (علم الاجتماع) يعترف بها .

ويختلف العلماء في تحديد الطبقات الموجودة في المجتمع الواحد إلا أن هناك تقسيما عاما وهو أن يقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات وهي (الاستقراطية والمتوسطة والشعبية) .

وإذا كان القانون لا يعترف بنظام الطبقات في بلد أو اقليم أو دولة .. فإنه يعترف بها في مكان آخر . ويكفي ان ننظر في التكوين الطبقي عند الهنود فمنهم من يعتقد أنه خلق من رأس (براهما) ومنهج من يوصم بأنـه خلـق من (قدم براهما) .

وأيضا بعض العقائد الدينية التي حرفت عن منهج الله تعالى تقول بنظام الطبقات كاليهودية .

ولذك ينبغي أن نعلم هنا : أن الدين الإسلامي يبرأ من النظام الطبقي [1] .

---

(١) بل إنه ما جاء إلا ليبطله . ويكفينا أن نذكر قول الله تعالي في هذا المجال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقول الرسول ﷺ (كلكم لآدم وآدم من تراب) .

فالفقراء والأغنياء والمتعلمون ومن لم يتعلم والأحمر والأسود كلهم كونوا الصفوف الأولى للإسلام، بلا عرق أو تعصب أو طبقية اجتماعية .وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم يشهد بذلك.

وما تعانيه المجتمعات الإنسانية في بقاع الأرض في كل عصر سببه الأصلي هو هذه النزعات الجاهلية . التي حاربها الإسلام منذ بكور دعوته ..

فلا نعرف مشكلة اجتماعية واجهت مشركي قريش مثل دعوة الإسلام . لإزالة الفوارق بين الطبقات لا تذويبها فقط . حتى علاقة (العبد) بمخدومه . وضح الإسلام أنها علاقة (عمل) لا علاقة (الطبقية) ويبرز هذا المعنى في قول الرسول ﷺ :

« إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » .

وفي التعبير بلفظ (الإخوان) و (بالصاحب) و (الأخ) ما يغني عن البيان .

(٧) جماعات منظمة وجماعات غير منظمة :

هذا التصنيف قال به (سوروكن) والذي يقوم على تقسيم الجماعات إلى :-

(أ) **جماعات غير منظمة** : مثل الحشد أو الجمهرة أو المظاهرة .

(ب) **جماعات منظمة** : وهي إما ذات رباط واحد حيوي مثل (سلالة) و (دين) أو أن يكون لها رابطة متعددة مثل الأسرة والقبيلة وهي تختلف عن بعضها في الحجم أو نظام الحكم ... وغير ذلك .

نقد هذا التقسيم :

والحقيقة أن هذا التنظيم يبدو مضطربا . والأسس التي قوم عليها متعددة وغير واضحة وغير مستقيمة .

(التنشئة الإجتماعية)

ألتنشئة وعلاقتها بالفرد والمجتمع :

ان الفرد لا يمكن أن يعيش بمفرده أي بمعزل عن الجماعة. بمعنى : أنه لا يمكن وجوده إلا في مجتمع . وبالتالي فالمجتمع عدما يوجد يكون وجوده سابق على وجود الفرد وعندما يولد الفرد فإنه يكون في حالة ضعف إذ يكون عبارة عن مجموعة من الاستعدادات الفطرية والدوافع النفسية . وليست له مقدرة جسميـة أو اجتماعية أو نفسية .

ويبدأ المجتمع بتربيته وتثقيفه ويلقنه لغته وعاداته وتقاليده ويكسبه الذوق أيضا ويعلمه النظم الاجتماعية والقوانين التي يخضع لها فهو ينمو بجسمه وبملكاته العقلية ومعه جميع الإمكانيات التي تؤهله للمعيشة في المجتمع وهذه العملية هي التي تسمى بعملية (التنشئة الاجتماعية) .

لذلك ينشأ الفرد وهو مدين للجماعة فيخضع لما فيها من عادات وتقاليد ونظم كما يسلم لعقلها (الجمعي) الذي ينتج من اجتماع الأفراد في مجمع واحد وتفاعل أفكارهم وتشابك وجدانهم .

وبالتالي يولد لديه (لون) جديد من التفكير والشعور يختلف عن ألوان التفكير الفردية .

هذا هو **(العقل الجمعي)** وبقدر ما يكون العقل الفردي مشاركا للعقل الجمعي في صفاته وتصرفاته بقدر ما تكون (درجة اجتماعية) إيجابية .

حرية الفرد :

بعد أن يتم المجتمع عملية (التنشئة الاجتماعية) للفرد يبدأ الفرد في تشكيل سلوكه بنفسه . وتنمو الفردية ويكتمل فيه الشعور النفسي والشعور الاجتماعي .

وهنا لا بد أن يكون هناك توافق بين حرية الفرد وضغط الجماعة ويتأتى ذلك عن طريق المجتمع ونظمه فهو حينما يفرض على الأفـراد أنماطا معينـة للسلوك

لا يجعل دائرة هذه الأنماط مغلقة بل يترك للفرد (هامشا) معينا يتصرف فيه بكل حريته . هذا الهامش يختلف حجمه من نظام إلى آخر في نظم المجتمع وأيضا من عصر إلى آخر بل ويختلف من مجتمع إلى آخر فكلما كان المجتمع أكثر تطورا كلما كان نطاق حرية الفرد واسعا وضخما فنجد في (المجتمعات البدائية) يضيق فيها نطاق حرية الفرد في التصرف .

ومن ناحية النظم نجد في النظام الاقتصادي يترك مجال حرية التصرف للفرد - بينما في النظام الديني يطلب من الفرد أن يتصرف في (مجال) تعاليم ونظام الدين . والتي لا يمكن الخروج عنها لأنه من مصدر مقدس لا يملك أحد أن يغير أو يبدل فيها ...

ظاهرة القيادة :

إنتهينا فيما سبق إلى أن الفرد وليد المجتمع وهو خاضع له .. ويتطور بتطوره ولكن يظهر وسط هذا المجتمع بعض الأفراد من ذوي الشخصيات البارزة فيؤثر في سير الجماعة . ويمكن أن يقلب نظمها ..

هذه الشخصيات تتمثل في الرسل والأنبياء والقادة والمصلحين الاجتماعيين أو المخترعين وهؤلاء يكون لهم تأثير كبير في الجماعات التي يعيشون فيها .

والقائد يعبر عن اتجاهات الجماعة التي يعيش فيها وعن رغبتها وعن عقلها الجمعي أي لا بد ان يخاطب الجماهير بلغة يفهمونها ..

وقد يجبر قائد جماعة أفراد جماعته بالقوة على اعتناق آراء لا تعبر عنهم ولا تمثل العقل الجمعي .

وهذا يمكن أن يحدث في ظل الحكم(الدبكتاتوري) وهذه الآراء ما يلبث العقل الجمعي من أن ينفجر ويثور ضدها .

إذن لا بد أن يكون للقائد صفات خاصة تمكنه من قيادة الجماعة والهيمنة عليها .. هذه الصفات قد تختلف من جماعة إلى أخرى .. بل إنها قد تختلف في نفس الجماعة من فترة إلى أخرى ويؤثر الوسط والتنشئة الاجتماعية في صفات القائد فقد يكون جلمدا أو لينا .. محافظا أو مجددا .. وهكذا .

أثر الدين في الحياة الاجتماعية :

وكما سبق أن بينا في ظاهرة القيادة صفات القائد فإننا هنا في الدين أيضا ينبغي أن تكون الصفات الشخصية للنبي . أو الرسول معبرة عن روح العصر والجماعة التي أرسل فيها . وأن يحمل للناس الآراء والعقائد التي يتمنون أن تسود بينهم أو بمعنى آخر : التى طال انتظارهم لها . وشوقهم إليها ..

فنجد في الدين الاسلامي أن النبي ﷺ يقول في حديث له :

" إنما امرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم " ..

ولنأخذ مثالا على ذلك وهو (ظاهرة الطلاق) .. هذا النظام كان متأصلا في الجاهلية العربية .. كان الرجل يطلق زوجته مئات المرات وكان موجوداً ما يسمى بالإنفصال الجسمي أو الطلاق اللانهائي .. وبمقتضاه تستمر المرأه إلى ما لا نهاية وهي في حالة زواج (إسمي) مع زوجها .. وطلاق (فعلي) وتقضي بقية عمرها على هذه الحال ..

هذا الوضع يساعد على كثرة المفاسد ولـذلك . فهو يمثل ظاهـرة اجتماعيـة (سيئة) .

وعندما جاء الإسلام وجد أنه ليس من الخير إلغاء نظام الطلاق بتاتا فماذا فعل ..؟ . عمل الإسلام على تنظيم حالة الطلاق الرجعي بما يؤدي إلى زوال مضاره .. فحدد عدد مرات الطلاق .. وأوضح موقفه من الطلاق عندما قال النبي ﷺ " أبغض الحلال عند الله الطلاق " كأنه أحله وكرهه في نفس الوقت حتى يستعمل في الحالات التي لا يستحيل معها استمرار الحياة الزوجية أي : أن الإسلام عندما قرر هذا النظام البغيض فهو انما يقرره مسايرا لروح الجماعة .. مكتفيا بما أدخله عليه من تنظيم وتحسين .

وبذلك يكون الإسلام قد عالج (الظاهرة) السيئة بما رآه مناسبا في العلاج مراعيا صالح الفرد والجماعة فكانت ظاهرة (تحديد) الطلاق . وهي لم تكن قبل (دين الإسلام) .

ولنأخذ مثالاً آخر وهو (نظام الرق) .. لو دققنا في هذا النظام نجده يتنافى مع روح الإسلام ومع دعوته إلى المساواة وهدم فكرة التميز بالعرق والطبقية ..

ولكن عندما جاء الإسلام وجد أن الإلغاء الفوري المتعجل من المستحيل تطبيقه بصورة فورية للآثار الاجتماعية التي يمكن أن تترتب على إحداث (هزة) اجتماعية . بهذا الإلغاء الفورى .. لعدة عوامل منها أنه يمثل الركن الأساسي من أركان النظام الاقتصادي .. السائد في ذلك الوقت .. أي أن إلغاء كان سيشل الحياة الاجتماعية .. فماذا فعل الإسلام ؟

لقد خفف الإسلام من مضار نظام الرق بأن قلل مصادره وأكثر من أبواب العتق والتحرير .. بحيث يمكن أن (يضمر) المنبع .. ويتسع (المصب) ..

وبهذا السير الهادئ - يمكن أن يقوم (المجتمع) بنفسه بالتخلص من هذه (الظاهرة) التي تعتبر (سبة) في جبين الإنسانية عندما (يستعبد) الإنسان أخاه الانسان ..

وكذلك فعل الإسلام في ظاهرة شرب (الخمر) حيث منعها بطريق التدرج مستحثا في الإنسان فطرته الراغبة في النجاح والفلاح وغيرها .

وهكذا نجد كيف أثر الدين الإسلامي في الظواهر الاجتماعية وكيف قام بتصفية بعضها بالطريق الفوري . أو الترتب الزمني الهادئ ... وكيف زرع (الخير) مكان (الشر) والظاهرة الحسنة مكان (الظاهرة السيئة) .

وهذا كله يشير إلى رأي العلماء الاجتماعيين في أنه يجب الاجتهاد في الدين وتطبيقه على المجتمعات المختلفة يكون وفق ظروف المجتمع ووفق اتجاهاته وروحه الجمعية .

ونحن نخالفهم في هذه الدعوى : دعوى ظروف المجتمع . فإن علم الاجتماع يوضح لنا أن الظاهرة تحتاج إلى (علاج) وأن تركها يجعل المجتمع في خطر .. وما دمنا قد اقتنعنا بالدين الإسلامي كمسلك اجتماعي . وأنه يمكن أن يكون مصدر الظواهر الاجتماعية النافعة . فإننا يجب أن لا نؤجل تطبيق (الدين) كمؤثر هام في الظواهر الاجتماعية . لما هو معلوم من (دوره) الخطير في النظم الاجتماعية والمراقبة الاجتماعية .

وما دام الدين الإسلامي يصلح كنظام اجتماعي ويحتوي على(البدائل) الاجتماعية . فإنه يمكن التوفيق بين فكرة الدين كنظام اجتماعي .. وبين الدين من حيث إمكان تطبيقه في كل زمان ومكان بلا توقف أو تدرج أو تجزؤ حسب الظروف الاجتماعية السائدة .

وهذا منهج الأنبياء والرسل ولذلك وجدوا الصعوبة في نشر دعواهم وهذا أمر طبيعي لأن المجتمع يقاوم كل جديد ويحتاج لفترة أو شخصية قوية أو معجزة حتى يستسلم له .

ولكن عندما يكون العقل الجمعي لقوم أقل في مستواه من مستوى الدعوة فهم لن يفهموها ولن يتقبلوها - وفي هذه الحالة المتشددة قد يأمر الله بإنزال صاعقة عليهم مثلا لكي يقضي عليهم ويأتي بقوم آخرين يقبلوها . مثلما فعل : بعاد وثمود وآل لوط ...

فالدين له تأثيره القوي على الحياة الاجتماعية ويمكن أن يستعمل في العلاج الاجتماعي للظواهر الشاذة والمنحرفة . كما أن الدين هو الذي (يؤصل) ويحافظ على (الظواهر) الحسنة التي ينتفع بها المجتمع .

ظاهرة التجديد :

نستنتج مما سبق أن فضل القادة والمصلحين الاجتماعيين ينحصر في أنهم أقدر من غيرهم على فهم اتجاه (العقل الجمعي) وتوجيه الأفراد إلى هذا الاتجاه .. أي : أن الذي (يغير) هو العقل الجمعي وهم يعبرون عن هذا العقل الجمعي .

ومن الذين يؤيدون هذا الرأي أعضاء المدرسة الفرنسية وعلى رأسهم (دور كايم) وأتباعه مثل : بول فوكنيه وجورج دافي وغيرهم .

ولكن فريقا آخر من العلماء لا يؤمنون بفكرة (العقل الجمعي) ورأيهم أنه يوجد أفراد عباقرة يستطيعون اختراع أشياء وأفكار جديدة وهؤلاء الذين يعتمد عليهم المجتمع في تطوره وتجديداته . وهم قد وهبوا عقلية خاصة تستطيع أن تجدد دائما .

وأفكارهم تلك تنتقل إلى الأفراد بفضل قوة تأثيرهم عليهم ثم تنتشر هذه الأفكار حتى يعتنقها المجتمع كله .

ونحن نؤيد هذا الرأي حيث أنه الذي ينسجم مع فكرة التجديد الذي يحدثه الأنبياء والرسل . (في العقل الجمعي) إن سلمنا بمفهومه الاجتماعي .

إذن التجديد أساسه الأفراد لا المجتمع . ومن العلماء القائلين بأهمية الفرد في التحديد العالم الانجليزي (هربرت سبنر) .

التوفيق بين الرأيين :

أما الرأي الذي يوفق بين كلا الرأيين فإنه يعتمد على أنه يوجد دائما المجال للأفراد الذي يمكنهم من إظهار شخصيتهم في نطاق النظام الاجتماعي بحيث يمكن أن يشترك الفرد والمجتمع في هذا التجديد .

إذ أن المجتمع في تطوره يوحي للأفراد بأفكار جديدة وهم بدورهم يوجهون غيرهم اليها .

وقد تكون هذه الأفكار أعلى من (مستوى العقل الجمعي) فيكون تنفيذها متوقفاً على وصول هذا العقل الجمعي إلى المستوى الذي تعبر عن هذه الأفكار .

وأخيرا : فإن التجديد قد يكون اجتماعيا أو فرديا ولكن تنفيذه في المجتمع يصبح رهنا بمستوى العقل الجمعي فيه [1] .

---

(١) راجع في التوفيق له (أسس علم الاجتماع) د. حسن سعفان ويلاحظ الالتجاء إلى فكرة (العقل الجمعي) والتعلق بها رغم أنها تتكون - عند اعتبارنا لها - من عقل الفرد فمن اتجه إلى (عقل الفرد) استطاع أن يكون (عقلا جمعياً) أما النظر إلى (العقل الجمعي) كوجود مستقل مجرد فهذا مالا نرتضيه .

الفصل الرابع

عوامل تشكيل المجتمع

أولا : العوامل الفيزيقية :

وتشمل عدة أنواع وهي :

(١) المناخ :

الذي يسود المكان الذي تشغله الجماعة والنباتات والحيوانات الموجودة به طبقا لنوعية هذا المناخ .

وتؤثر الحياة المناخية على نفسية الجماعة ونشاطها وأمزجة أفرادها .

(٢) المنطقة الطبيعية :

وهي الإقليم الذي يوجد فيه أفراد الجماعة حيث يكونون محتمعهم دون أن يحول بينهم وبين ذلك عامل طبيعي أو صناعي ، وتتأثر الجماعة بالمنطقة الطبيعية التي تعيش فيها .

فنجد أن الجماعة التي تسكن منطقة طبيعية ضيقة تمتاز بكون الصلة بين أفرادها قوية شديدة ، وليس لديهم تنوع في النشاط الاجتماعي وتقع غالبا تحت تأثير الجماعات التي تسكن مناطق واسعة . كذلك يشتهرون بضحالة التفكير مثل: الهنود المكسكيون فإننا نجدهم محدودي التفكير لأن الجبال التي تحيط بهم تجعلهم يعيشون في عالم محدود سواء من الناحية الروحية أو العقلية .

أما الجماعات التي تسكن مناطق واسعة فإنها تتمتع بثروات طبيعية أكبر وينشأ عندها ما يشبه الاستقلال الاقتصادي والسياسي .

وكذلك فإن اتساع مساحة الإقليم يساعده على احتكاك أفراد جماعته بالجماعات الأخرى مما يساعد على اتساع أفق التفكير .

كذلك موقع المنطقة يؤثر فيها مثل موقع (مصر) بين الشرق والغرب فإنه قد أثر في تاريخها وثقافتها وزاد من أهميتها

(٣) الحواجز الطبيعية :

وهي التي تفصل مجتمعا عن غيره من المجتمعات مثل (الصحراء) حيث تكون حائلا دون نمو الجماعات إذ أن المعيشة غير مستقرة ومن هنا يصعب وجود تنظيم اجتماعي على نطاق واسع ، وكذلك تعتبر (الجبال) حاجزاً فهي تجعل سكانها يعيشون في عالم محدود ويمتازون بالقوة والصبر ومتانة الأعصاب .

وتعتبر (المحيطات) أيضا من الفواصل الاجتماعية وخاصة بالنسبة للأمم البدائية التي كان من الصعب عليها عبور (المحيط) في الماضي - أما في الحاضر فقد أصبحت المحيطات عامل اتصال وطريقاً للمرور يربط المجتمعات بعضها ببعض .

(٤) السكان :

نجد أن العوامل السكانية لها أثر كبير في النماذج الاجتماعية السائدة في المجتمع . فمن ناحية زيادة المواليد أو نقصانها فهي تؤثر في سياسة المجتمع . فنجد (النازيين) [١] كانوا يشجعون زيادة النسل للاستفادة بهم في الأغراض العسكرية حيث يحاربون بهم الأجناس الأخرى .

والهجرات سواء كانت إلى المجتمع أو خارجه أو تلك التي تكون داخل المجتمع الواحد . والمجتمع الذي تكثر الهجرة إليه ينتشر فيه الصراع الثقافي .. حتى يمكن أن تكون له بعد أجيال ثقافة خاصة به مثل (أمريكا) التي يكثر بها الثقافات المتعددة نظرا لأنه مجتمع تكون من خليط (هجرات) مختلفة المجتمعات .

والاستقرار يؤثر أيضا في النظم الموجودة داخل المجتمع كما يؤثر الاستقرار السكاني؛ في النظم الاجتماعية الموجودة داخل المجتمع نفسه من حيث تأكيد استقرارها. أو تطويرها حسب المجتمع المستقر ..

---

(١) النازي : مصطلح على النزعة التي حاول ترويجها القائد الألماني " هتلر " إذ اعتقد أن السلالة الألمانية هي أنقى وأطهر السلالات ولا بد أن تسود العالم ولو بالقوة .. وقد حاول أن يطبق نزعته هذه (عمليا) فكانت الحرب العالمية الثالثة التي انتهت سنة ١٩٤٦ والتي قضت عليه وعلى النازية .

ثانيا : العوامل الحيوية والنفسية :

وتعتبر العوامل الحيوية والنفسية من المؤثرات في تشكل الحياة الاجتماعية فنجد أن للإنسان خصائص حيوية ونفسه تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى . فإن بعض هذه الخصائص (وراثي) وبعضها الآخر (مكتسب) . أي يكتسبه الفرد في تكوينه لأنماطه المختلفة وعاداته وتقاليده . حيث تعتبر اللغة (الأداة) الأولى للاتصال بين الأفراد . والاتصال يقوي التعاون بين الجماعات فهي إذن تساعد الأفراد على أن يعملوا سويا للمصلحة المشتركة .

كذلك من العوامل النفسية التي تؤثر في تشكيل جماعة (المواقف والقيم) والموقف هو اتخاذ وضع معين إزاء شخص أو شيء معين وكل موقف يتخذه الشخص تصحبه (قيمة) فالشخص مثلا الذي يتخذ (موقفا) ما إزاء موقف معين يمثل موقفه هذا (قيمة معينة) وبقدر ما يكون موقف الشخص إما عدائيا أو وديا بقدر ما تكون قيمة الأشياء التي يتخذ منها مواقفه السالبة أو الموجبة

ومن العوامل النفسية أيضا نجد الشخصية الإنسانية - حيث تعتبر من أهم العوامل التي تقوم عليها الجماعة .

والشخصية كما عرفها بعض العلماء هي : (عبارة عن التنظيم المستمر للعمليات النفسية والفيزيقية التي تتم داخل الفرد والتي تحدد تكيفات الفرد بالنسبة للوسط الذي يعيش فيه هناك وبعض الأسس التي تقوم عليها الشخصية والتي يكون لها تأثير بالغ على السلوك الإنساني) .

ثالثا : العوامل الثقافية :

وهي تمثل العادات والتقاليد الموروثة والنظم السائدة في المجتمع والتي تكونت على مر التاريخ سواء قام الفرد بتكوينها بنفسه أو أخذها من مجتمعات أخرى عن طريق اتصاله بها .

فالثقافة إذن : هي الأسلوب المعيشي والفكري الذي تسير على نمطه الجماعة وتختلف الجماعات اختلافا واضحا بالنسبة لتراثها الثقافي .

فنجد جماعات لها (تراث) كبير من النماذج الثقافية وجماعات ذات تراث معقد [1] ناضج مع وجود رغبة عند أفراده لتحسين هذه النماذج (الظواهر) .

ونوع ثالث من الجماعات لها نماذج ثقافية معقدة ومتعددة ولكنها تكتفي به أو تعتقد أنها ليست بحاجة إلى تغيير أو تحوير .

ويتضح هذا النوع في المجتمعات (الرأسمالية) حيث تقضي على أي تفكير في تغيير النظم أو الاصلاح .

وتأثير الثقافة على الشخصية يبدو واضحا عندما ينتقل شخص من وسط ثقافي إلى وسط آخر مخالف .

هنا تنشأ داخله (معارك نفسية) بين تأثره بالأنماط القديمة وبين محاولته تكيفه وفق الظروف الجديدة وهو ما يعرف باسم (ظاهرة التكيف الثقافي)

وهذه المعارك النفسية تجعل الشخص يعيش على (الهامش) بين ثقافتين ويطلق على هذا الشخص إسم (الرجل الهامشي) .

ومثل (الفرد) توجد أيضا (جماعة) تعيش على (الهامش) مثل (الزنوج في أمريكا) فهم قوم يعيشون على هامش ثقافتهم التقليدية من ناحية وعلى (هامش) الثقافية الأمريكية من ناحية أخرى .

وتظل الجماعة الهامشية عادة عدة أجيال إلى أن تتحول إلى ثقافة أصلية .

أهمية النمط الثقافي لعلم الاجتماع :

ودراسة الأنماط الثقافية تهتم بها الدراسات الاجتماعية لأنها تعكس التطور والتغيير اللذين يعتبران من أهم صفات الجماعة .

وفي النهاية تساعدنا الأنماط الثقافية على فهم النواحي النفسية والاجتماعية للجماعات الإنسانية المختلفة ....

---

(١) عندما يقال في علم الاجتماع (مجتمع معقد) أو جماعة (معقدة) أو (تراث معقد) فإن (التعقيد) يعني عند الاجتماعيين : أنه شيء راق متحضر . فالتعقيد عندهم (يقابل) (السذاجة) البدائية ... وليس (التعقيد) بهذا المعنى في (علم النفس) المعاصر .

الفصل الخامس

(التفاعل الاجتماعي)

أولا : العمليات الاجتماعية :

سنتحدث هنا عن العمليات التي تحدث داخل المجتمع . وكيف تنتهي هذه العمليات بين الأفراد - وهؤلاء الأفراد يعيشون وهم على اتصال بعضهم ببعض بما يحدث بينهم تأثير متبادل وهذا التأثير هو (التفاعل)

وهذا (التفاعل) هو أهم العمليات الاجتماعية فهو يلخص كل العمليات الاجتماعية التي تحدث في المجتمع. والعملية الاجتماعية عبارة عن استمرار مجرى الحوادث الاجتماعية بدون تغيير . وقد تدل على تغير في هذه الحوادث أي : على حدوث تطور أو ثورة .

معنى العزلة الاجتماعية :

وإذا انعدم التفاعل ينشأ عن ذلك وجود العزلة الاجتماعية ومعناها انعدام (العملية الاجتماعية الرئيسية) وهي (التفاعل) وهي تعتبر من أهم الصور الموجودة داخل المجتمع .

وهذا هو السبب في أن الشخص (المعزول) عن المجتمع يسلك مسالك غريبة عن المجتمع وينمو هذا الشخص وهو لا يفهم الجماعة التي يعيش فيها . ويحدث إهمال متبادل بينه وبين المجتمع .

وبالتالي : يؤدي ذلك إلى حدوث انقسام داخل المجتمع بين أفراده أو طبقاته ....! ...

والعزلة لا تكون بالجسم فقط أي : انفصال الفرد عن الجماعة بل يمكن أن تكون (عزلة ثقافية) ..

التنافس الاجتماعي :

وينبغي ان نوضح أن (التفاعل الاجتماعي) قد يؤدي إلى ظهور (التنافس) وهو يعتبر من العمليات الاجتماعية أيضا .

والتنافس قد يكون (إتلافيا) عندما يكون هدف المتنافسين أن ينجح أحدهم على حساب خسارة الآخرين وهلاكهم وبشتى الوسائل من خداع وغش إلى عنف وقوة وهم يسيرون على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) .

وقد يكون التنافس (إنشائيا) وهو الذي يهدف إلى الصالح العام المشترك مثل تنافس العلماء للوصول إلى مخترعات جديدة أو كتنافس الطلبة في التفوق العلمي أو الرياضي والتنافس يمكن أن يؤدي إلى (صراع) والصراع إما أن يكون (متكافئا) أي بين قوتين متكافئتين .

أو يكون (غير متكافئ) أي بين قوتين غير متكافئتين وحينئذ تقضي القوة الكبيرة على الصغيرة .

التعاون الاجتماعي :

وتوجد عملية أخرى داخل المجتمع وهي (التعاون) ومعناه : أن يعمل أكثر من فرد للوصول إلى هدف مشترك سواء كان للحصول على مكاسب مشتركة أو للدفاع عن النفس أو لمساعدة الآخرين للسعي في تحقيق أمل واحد .

ويعتمد التعاون على التضامن الاجتماعي فإذا كان التضامن قويا زاد التعاون للصالح العام .

ولا بد من وجود التعاون في المجتمع وإلا لتحول المجتمع إلى كتلة من الصراع والتنافس مما يشتت قوته ويقضي على التضامن الاجتماعي به [1] .

معنى التكيف الاجتماعي :

والتكيف الاجتماعي يعد هو الآخر من العلميات الاجتماعية الموجودة داخل المجتمع . وهي عملية (التوفيق) بين الأفراد ويقوم على التساهل والتحمل والتضحية. أي يضحي كل فرد (بجزء) من حريته أو من مصلحة في سبيل الصالح العام ، والتكيف الاجتماعي يؤدي إلى القضاء على الفتن والمشاحنات في الجماعة .

---

(١) تجدر هنا ملاحظة شأن (التعاون) في الدين الاسلامي وكيف سدد ميدان المنافسة بين الأفراد . وهو (الخير) حيث قال تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وما عداه تحدث عن التراحم والتعاطف والتكافل الاجتماعي ورعاية الضعفاء واليتامى وغير ذلك من المعاني التي تستلب (التنافس) .

معنى التمثل والمزج الاجتماعي :

ومن العمليات الاجتماعية أيضا نجد (التمثيل والمزج) وهما يعتبران الصورة (الواقعية) لمعنى (التفاعل) .

والتمثيل هو العملية التي تعمل على توحيد مواقف الأشخاص في موقف موحد . ويجعل الأفراد يفكرون سويا كوحدة واحدة .

أما المزج فهو عملية خاصة بنشأة جنس جديد نتيجة التزاوج مع أجناس مختلفة أي خلط الأجناس . وهي عملية تتفشي ببطء لأنها تنفذ عن رغبة واختيار وليس بالإكراه . ولا بد أن تسبقها عملية (الت[illegible]) وبدون التمثل فإن المزج لن يتم وذلك مثل مزج المصريين مع السودانيين في معنى واحد هو (وادي النيل) فقد تقاربت بذلك بين المجتمعين [illegible] والتقاليد والمظاهر الاجتماعية.

علاقة التنشئة الاجتماعية بالتفاعل :

ومن أولى العمليات الاجتماعية وأهمها التنشئة الاجتماعية وهي تقوم على اشتراك أفراد الجماعة في العمل أو تكوين جماعة ذات نماذج اجتماعية وقيم معينة يحترمها الأفراد .

وعملية التربية والتثقيف التي تقوم بها الجماعة ما هي إلا عملية تنشئة اجتماعية . فالشخص عندما يكون طفلا يكون منطويا على نفسه ذا ميول أنانية (egoistic) فوضوية - ولكنه مع تدرجه في العمر يبدأ بالشعور بالجماعة التي يعيش فيها فيتكون لديه الشعور بالمسئولية الجمعية .

فالتنشئة الاجتماعية قوامها تعهد الطفل بالتعليم والتثقيف والتلقين لمبادئ وأخلاق المجتمع وعاداته وتقاليده ، ومكتسباته ..

وهذا التعهد هو الذي يحول (الفرد) من فرد يهوى العيش لذاته فقط .. وتتحكم فيه غرائزه وميوله الشخصية .. إلى شخص آخر مصقول تصدر حركته عن شعور اجتماعي . فيصير شخصا صالحا لمشاركة حياة الجماعة .

وكما يقال عن عملية(التنشئة الاجتماعية) إنها عبار عن عملية (ترويض) لقوى الفرد التي تبتغي الحياة في ظلال (الأنانية) إلى ذات (مروضة) تقبل الحياة في ظلال الحياة الاجتماعية (الجمعية) .

ونحن نعتقد أن الانسان في بداية (وجوده) ليس على هذه الصور السيئة من (توحش الذات) ... حتى تحتاج إلى الترويض بعملية التنشئة الاجتماعية .

فإننا نجد أن الإسلام يصور لنا البداية الأولى للطفولة الانسانية وهو أنه : بداية (نقية) صافية وأن الطفل يولد صفحة بيضاء .. تنقش عليه التنشئة الاجتماعية . ما أراده له (الناقش) .

فقد ورد في الحديث الشريف (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه إما يهوذانه أو ينصرانه أو يمجسانه) [1] .

فالإسلام يعترف هنا بفكرة (التنشئةالاجتماعية) ولكنه لا يتفق مع علماء الاجتماع المعاصرين في نظرته (القاتمة) إلى بداية الطفولة .

فبينما يقول العلماء : إن الطفل يولد وقد شحن بالأنانية التوحشية الغريزية التي تحتاج إلى (الترويض) .

يقول الإسلام إن الطفل يولد نقيا صافياً .. كالنهر الهادي الوديع . فلا توحش ولا أنانيه وانما (سلامة) الفطرة ... ﴿ **فطرت الله التي فطر الناس عليها** ﴾ [2] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) سورة الروم آية ٣٠ .

ثانيا : التنظيم والمراقبة :

(أ) التنظيم الاجتماعي :

إن الذي يؤدي إلى تبلور وتفاعل العلاقات الاجتماعية الثابتة بين الأفراد هي (العمليات) الناشئة عن : التنظيم الاجتماعي والمراقبة الاجتماعية ..

فما هو التنظيم الاجتماعي .. (S. ergmisation .) ؟

إن المجتمع لا يترك الأفراد يسيرون فيه دون نظام محدد يسيرهم وفقه . فهو الذي ينظم أوجه النشاط المختلفة في المجتمع ويرسم الطرف التي يجب على الأفراد السير فيها وهم يسلكون السلوك العام .

وأنواع التنظيم الاجتماعي هي كل (النظم الاجتماعية) فالتنظيم العائلي هو : النظام أو الظاهرة الاجتماعية . والتنظيم الاجتماعي قد ينشأ أنواعه بطريق تلقائي. وقد ينشأ بطريق العمد الصادر عن الشعور بنشأته للحاجة إليه .

(ب) المراقبة الاجتماعية :(. S. control)

المقصود بالمراقبة : الوسائل التي تصطنعها الجماعة للإشراف على تصرفات الأفراد حسب القواعد والنظم التي رسمها المجتمع لأفراده . حتى تجعلهم ينصرفون على هديها بطريقة يرضى عنها المجتمع فتكون ميسرة للفرد .

ويقول العالم جلن (.Gelen) في تعريف المراقبة إنها عبارة عن : مجموعة الإجراءات والوسائل . كالإيحاء والإغراء والضغط والإلزام . أو أية وسيلة أخرى بما في ذلك القوة المادية . وبواسطة هذه (الوسيلة) ينيب المجتمع (جماعة فرعية منه (Subgroup) تتولى هذه الجماعة (مراقبة) تسيير الأنماط السلوكية وفق ما تعارفت عليه الجماعة حتى يمكن السير وفق هذه الأنماط [١] .

---

(١) يقال ان أول من من استخدم كلمة (المراقبة الاجتماعية) هو : روس (.Ross) سنة ١٩٠١ م . راجع ك (أسس علم الاجتماع) د. حسن سعفان .
والاسلام يستعمل كلمة (المراقبة) في النشاط الاجتماعي والعقائدي منذ أكثر من (ألف عام ويعني بها : مراقبة الله تعالى .

متى يختلط معنى التنظيم والمراقبة . ومتى يفترق .. ؟ ..

قد يصعب أحيانا التفرقة بين معني: التنظيم الاجتماعي والتفرقة الاجتماعية من رأيي : أن (المراقبة) تستهدف المحافظة على التمسك (بالنظم) ..

فمثلا : لا يمكننا التفرقة بين : التنظيم والمراقبة عندما (يختلطا) في (القانون) إذ القانون عبارة عن : تنظيم اجتماعي للحياة . وأيضا هو : وسيلة من وسائل المراقبة الاجتماعية . ومثل (القانون) في هذا المضمار : الكثير من العادات والتقاليد ...

ولكننا مع ذلك يمكننا أن نفرق بين (التنظيم والمراقبة) إذا جعلنا محور بحثنا في التفرقة هي (الغرض) منها

فإذا كان غاية و (غرض) النمط الاجتماعي هو : النظام فهو (التنظيم الاجتماعي) .

أما إذا كان غاية و (غرض) النمط الاجتماعي هو : مجرد تقريب وإشاعة الحب في التنظيم للأفراد . أو حملهم على اتباع هذا التنظيم فهو : المراقبة الاجتماعية .

وعليه : فعملية (البناء) للنظام هي : التنظيم . وعملية (الحراسة) له هي : (المراقبة) ..

قيمة المراقبة :

للمراقبة الاجتماعية أهمية كبيرة . فعليها يتوقف سلامة النظام الاجتماعي لأن الفرد لو ترك ليسير حسب رغبته وهواه . فقد يتهور ولا يبالي بالقيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية . عندما يجدها تصادم رغبته ومصلحته الشخصية دون أن ينظر إلى صالح (الجماعة) الانسانية .

وأول شعور بالمراقبة يبدأ مع طفولة الفرد وهو في محيط الأسرة إذ يقوم (ولي الأمر) بها . مستخدما الشدة أو اللين . حسب الظروف ... ومن هنا يكثر قول الآباء لأطفالهم : لا تفعل كذا .. إفعل كذا .. إياك .. إحذر .. تجنب ..

وهذه الرقابة الأسرية هامة في مجال المراقبة الاجتماعية . لأنه هي (المدرسة الأولى) في حياته . ويقدر نجاح هذه الأسرة في (المراقبة) بقدر تعميق فكرة (الروح) الاجتماعي . فيصبح (الفرد) اجتماعيا صالحا لأن يشارك الجماعة .

وأصدقاء (الطفل) في لهوه ولعبه . يتعود منهم التضحية بمطالبه الخاصة ليمكنه التوفيق بين رغبته ورغبات الجماعة .

ويؤصل قيمة (المراقبة) عند الفرد : دور رقابة المدرسة التي تهتم بإبراز معنى (دقة النظام) في بدء الدراسة وانتهائها والطوابير التي تستحدثها .

ويأتي بعد ذلك إبراز معنى (التنظيمات والقواعد) من خلال (الدروس) التي يتلقاها التلميذ من مدرسيه .

ويمكننا أن نضم إلى ذلك : أن اجتماع الفرد من زملائه التلاميذ يخلق فيه التوافق الاجتماعي . ويعوده على : أهمية (المراقبة الاجتماعية) .

أشكال المراقبة :

يوجد للمراقبة الاجتماعية (أشكالا) كثيرة ... وقد حاول العالم البلچيكي: دبرا (G.L. DUprel.) : أن يلخص أشكال المراقبة فوضع (جدولا) نلخصه في الآتي :

(١) : مراقبة غير مهذبة : (Brwtales) وتتكون من :

(أ) جسمية : مثل : الحرب - التعذيب - الحجز ..

(ب) تهديدية : مثل : الاختيار الديني (Ordalie.) .

(جـ) سالبة : إما للحرية مثل : السجن . وإما للوسائل مثل : النفي والتحقيق .

(٢) : مراقبة معنوية (Motales) وتتكون من :

(أ) مستترة : وهي إما (تقليدية) مثل : أثر الأساطير والعقل الجمعي. وإما (إيجابية ترميزية) مثل : التعليم والتربية والصحافة .

(ب) ظاهرة : وهي إما (عاطفية) مثل الأعياد والدين والوطنية .

وإما (مذهبية) مثل : القومية والرأي العام وآراء أولي العلم والخبرة . والاتجاهات الروحية .

(٣) : مراقبة عملية تطبيقية : وتتكون من :

(أ) شائعة . مثل : اللغة والأخلاق والفنون التطبيقية السائدة في الحياة الاجتماعية .

(ب) منظمة . مثل : قواعد الزواج . والعقود عموماً .

(جـ) عامة وهي إما (سياسية حكومية) مثل : القواعد التي تصدرها السلطات التنفيذية والتشريعية وإما (قانونية) وهي التي تمثل القواعد المدنية والجنائية والدولية والأحكام القضائية المتعلقة بها .

(٤) : المراقبة الوظيفية :

وتعرف أيضا باسم (المراقبة الطبقية) وهي القواعد التي تختص بتدرج وتسلسل الوظائف الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد في المجتمع فكل (فئة) من المجتمع تمثل (طبقة) للمراقبة الاجتماعية وشكلا من أشكالها .

دور العادة في المراقبة :

تطلق كلمة (العادة) على (الأفعال التعودية) وهي تعني عند علماء الاجتماع : نوعا من السلوك الفردي الذي يصل إليه الفرد بالتعلم والتدريب . فالفعل الاعتيادي هو : (Habitude. Habit) وكلمة (habit .) بهذا المعنى الاكتسابي تقابل كلمة (Reiglexes.) التي تعني (الأفعال المنعكسة) أي : التي تستمد من الوراثة والولادية . والفطرة . بلا تعلم أو اكتساب .

وتقابل كلمة (Habit) أيضا كلمة (Tropismes) والتي تعني : (الأفعال الانتحائية) التي تعتمد - أيضاً - على الوراثة والطبع .

سمة الفعل الانتحائي :

الفعل الانتحائي لا يحتاج إلى : جهاز عصبي . ولذلك فلا يوجد إلا في الحيوانات الدنيئة التي خلت من هذا الجهاز . وتعتمد على عوامل خارجية تلقائية بحته . مثل : (الضوء - الانتحاء الكهربي - الانتحاء الكيماوي) .

الإنسان والأفعال التعودية :

لا ترى الأفعال التعودية إلا في الحيوانات ذات الجهاز العصبي الراقي . والتي يمكن تدريبها وتعليمها . فصارت بذلك خصيصة من خصائص (الإنسان) فهو الحيوان الوحيد الذي يستطيع أن يتعلم ويتدرب .. وينقل ما تعلمه وما تدرب عليه إلى الانسان من جيل إلى جيل . وهذا هو ما يطلق عليه كلمة (العادة) (Ustom.) .

مكونات العادة :

تتكون العادة الاجتماعية من الأمور الآتية :

(١) اللغة التي يصطلح عليها المجتمع وتربطه بلسانه .

(٢) الأنماط الرمزية . التي تعتبر عن أفكار وعقائد الفرد .

(٣) السلوك الجمعي الذي يعبر عن (تكيف) الفرد مع وسطه الاجتماعي.

معنى السلوك الجمعي (FOLK - Ways)

تطلق هذه الكلمة على (التجانس) والتناسق التي يظهر في سلوك أفراد الجماعة . فهو بذلك : المظهر الجمعي للأفعال التعودية . أو العادة الفردية .. وهو وهو ينشأ (تلقائيا) تبعا لنشأة (التكيف) ..

مثـال :

في مجتمعنا لا بد أن يسير الفرد (متشحا) بالثياب . بينما يمكن لفرد آخر السير في مجتمعات أخرى عاريا أو ساترا (عورته) فقط فالتغطية هنا

تمثل (النمط) الاجتماعي الذي لا بد من مراعاته والا تعرض بفعل (المراقبة) إلى : السجن أو الغرامة ..

و (شكل) التغطية وطريقتها . لا تبلغ بحال في (الجبرية) درجة (التغطية) نفسها. فالفرد الذي يلبس ثوبه (مقلوبا) لا يلاقي العقاب الاجتماعي الذي يلاقيه الشخص (العاري) حيث يكتفي في الأول بالسخرية منه .

وإذا ارتقي السلوك الجمعي صار (عادة حتمية) وإذا أهمل بعض الشئ صار(سلوكا جمعيا) مثل : سير (المرأة) في الشارع المصري وهي (محجبة) أو (مقنعة) . كان يمثل في مصر (عادة حتمية) . ولكن الوضع تدهور من (الحتم) إلى أن صار (السفور) (عادة) وانقلبت العادة الحتمية إلى (عادة) غير حتمية . وهذا معني السلوك الجمعي .

وعلى ذلك : فالعادات هي : أنماط السلوك الجمعي التي تنتقل من جيل إلى جيل . وتستمر فترة زمنية حتي تستقر وتعترف بها الأجيال المتعاقبة .

وغالبا ما تقوم العادة مقام (القانون) ولذلك يسميها (فقهاء القانون) باسم (القانون غير المكتوب) . بينما يسميها (الفلاسفة وعلماء السياسة) بأنها : القاعدة الاجتماعية التي تكونت على مر الزمن ولكنها نالت احترام الرأي العام وتقديسه .

والعادة : تعتبر من مصادر الإلزام الاجتماعي . والقانوني . وقد اعتبرها الشرع الإسلامي تحت اسم (العرف) كمصدر من مصادر التشريع الإسلامي . وكذلك يعتبرها القانون الوضعي المصري حيث نجد في (المادة الأولى) منه نصاً يقول : (إذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه حكم القاضي بمقتضى العرف ...)

العلاقة بين العادة والبدعة :

يفرق علماء الاجتماع بين العادة وبين (البدعة) التي بمعنى : الأمر الجديد أو مستحدثات الأمور . بأن هذه البدعة تتميز بأنها : وقتيه غير مستقرة ولا تعرف الثبات فهي دوما في حالة تحول واستمرار .

ومن هنا لوحظ (ندرة) وجود ظاهرة البدعة (الأحدوثة) في المجتمعات المعروفة بشدة المحافظة على العادات والأنماط الاجتماعية الموروثة .. وتظهر (البدعة) في المجتمعات التي تفتر فيها فكرة (الحفاظ) على مواريثها العامة ..

دور التقليد (Tradition) في المراقبة :

التقاليد الاجتماعية هي : التجارب التي مرت بها الجماعة الإنسانية خلال تاريخها الطويل . واكتسبت منه الذكريات التي وعتها لتنقلها من السلف إلى الخلف جيلا بعد جيل .

فالتقليد يعني : انتقال العادة أو العرف من جيل لآخر ولكن هذا الانتقال يكون بالطريق الاجتماعي . وهذا هو الفرق بين (التقليد) و (الوراثة) التي طريقها (الفسيولوجيا) العضوية .

ولا بد لإتمام مهمة التقليد من وجود : جماعة منظمة . والاتصال الدائر بين الأجيال المتعاقبة داخل هذه الجماعة .

وعناصر التقاليد : تغطي كل ميادين الحياة الاجتماعية .

الفرق بين العادة والتقليد :

يفرق بعض علماء الاجتماع بين (العادة) و (التقليد) على اعتبار أن التقليد : يرتبط بسلوك المجتمع ككل لا يتجزأ ..

وأمّا العادة فلا تتعلق إلا بالسلوك الخاص للفرد . فحيث الاشتراك في النشاط الاجتماعي توجد : التقاليد.. وحيث : لا اشتراك لا توجد تقاليد .

كيفية انتقال التقاليد :

تنتقل التقاليد عبر الأجيال المتعاقبة بطرق ثلاث :

(١) الإنتقال الشفهي : فإن التقاليد الشفهية تسود في الشعوب التي لم تتحضر . لذلك يكون النقل بطريق (المشافهة) مثل : انتقال الأنساب والخرافات والأساطير . والحكم والأمثال .

(٢) الانتقال المكتوب : وهي التقاليد التي تتمثل في (رموز) خاصة بالجماعة الإنسانية مثل : دلالة (النُصبُ) والصواري الخشبية على معاني خاصة. ودلالة (العُقد) في الأحبال .

(٣) الانتقال بالتجربة الفعلية . وتنقل التقاليد عن طريق التجارب السلوكية وما يقوم به الأفراد من طقوس وأعمال في حياتهم الجمعية مثل . طريقة الزراعة والحصد ووصايا الآباء للأبناء النابعة من خبرتهم في الحياة وتجاربهم.

أهمية العادات والتقاليد في المراقبة :

تستمد العادات والتقاليد أهميتها من ناحية أنها : تمثل الإطار العام لسلوك وعقيدة الفرد الموجود وسط جماعة من الجماعات . فلا يسمح هذا (الإطار) بأن يخرج الفرد عليه .

فالعادات والتقاليد بذلك : تمثل في المجتمع : قوالب التفكير والعمل وقد ترتقى إلى موضع (التقديس) لدى الفرد . وقد لا يؤمن بها (الفرد) ومع هذا فإنه يخضع لها بذلة وطواعية . فكم من (عادات وتقاليد) لا يؤمن بفائدتها الفرد أو الجماعة . بل أحيانا يعتقد ضررها - ومع هذا يتبعها الناس خوفا من اللوم والتقريع الاجتماعي .

ويكفي ان نستحضر العادات والتقاليد في مناسبات (الوفاة) و (الزواج) من (حفلات) باهظة التكاليف ونشر بالصحف .... وغير ذلك من عادات وتقاليد . أغلبها يرفضه العقل والدين .

والمجتمع يحتاج إلى (العقول المستنيرة) التي (تنبه) العقل الجمعي إلى عدم تناسب العادات والتقاليد مع ما ينبغي أن يؤصل من عادات وتقاليد على الموروث العقائدى والتراث العقلي والذهني الذي يحمل الفائدة والخير والرفاهية للمجتمع الانساني ..

ذلك الخير الذي هو (أمل) النبوات على الأرض . وهذا هو معنى (السعادة). التي يمكن أن تتحقق في المجتمعات الإنسانية .

ويلاحظ أن (علم الاجتماع) لم يتعرض في بيان (كيفية الانتقال) للعادة والتقليد لمظهر هام من مظاهر الانتقال . وهو : أثر الوحي والدين في نقل وتأصيل هذه العادات والتقاليد .

ولكن لا ينبغي أن نفصل هنا دور « الدين » في إرساء القواعد والعادات والتقاليد الاجتماعية . سواء كان هذا (الدور) من علمائه . أو من أعدائه ..

الفصل السادس

(التغير الاجتماعي)

أسباب التغير الاجتماعي :-

تتغير الظاهرة الاجتماعية في المجتمع لعدة أسباب منها :

(١) أن المجتمعات في تغير دائم فهى تتغير من (الناحية السكانية). فمثلا يمكن أن يزيد عدد السكان أو يقل طبقا للظروف الاجتماعية وأحوال المجتمع من هجرة أوغزو أو تعرضه للأوبئة الطبيعية كالزلازل والبراكين .

(٢) وقد يتغير المجتمع بسبب ناحية (المساحة) التي يشغلها الأفراد فيمكن أن تزيد المساحة أو تقل . ويمكن أن تتغير كلية كما هي الحال في الجماعات المتنقلة التي تعيش على الرعي والصيد .

(٣) وتتغير النظم الاجتماعية من فترة لأخرى بسبب تغير (النظام السياسي) مثلا في (مصر) تغير النظام من الملكية إلى الجمهورية - كذلك النظام القضائي كان يقوم على أساس (ديني) وأصبح على أساس (مدني) وأيضا بالنسبة للنظام الاقتصادي .. وهكذا .

(٤) ويحدث التغير نتيجة لسير الحياة الاجتماعية نفسها لأن بالمجتمع تجارب كثيرة على مر السنين وبالتالي : فإنه تتغير حياته ونظمه طبقا لذلك .

(٥) ويحدث التغير أيضا نتيجة اتصال المجتمع بالمجتمعات الأخرى عن طريق الانتشار الثقافي الذي يأتيه من المجتمعات الأخرى بشكل مباشر أو غير مباشر .

صور التغير الاجتماعي :

التغير لا يأخذ صورة واحدة في جميع الأحوال :

(أ) فتارة يكون هادئا ويحدث تدريجيا .

(ب) وتارة أخرى يكون عنيفا جارفا .

(جـ) وقد يكون شاملا عاما .

(د) وقد يقتصر على ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية .

ودراسة التغير الاجتماعي يطلق عليها (ديناميات المجتمع) أي : دراسة المجتمع وهو في (حالة حركة) .. وأيضا يطلق عليها دراسة (ميكانيكية التحول) أي : تنظيم العلاقة بين عدة أجزاء لشئ (ما) لكي ينتج نتيجة خاصة .

التطور الاجتماعي

معنى التطور :

يقصد بالتطور الاجتماعي التغير التدريجي الهادئ . وله عدة معاني :

(١) فهناك تطور (حركي) وهو يدل على الحركة الانتقالية للأجرام السماوية فيتعاقب الليل والنهار في حركة ثابتة ..

(٢) ويوجد تطور (عضوي) وهو يدل علي دورة الكائن الحي من الولادة إلى الترعرع والنضوج ثم إلى الوفاة والفناء .

(٣) وهناك التطور (العقلي) وما يصحبه من نمو وارتقاء في التفكير والشعور والإدراك . ثم نضوج واضمحلال وفناء .

فروق في معنى التطور :

ولكن يوجد فرق بين التطور الحركي والعضوي والعقلي من ناحية . وبين تطور المجتمع من ناحية أخرى .

ففي التطور الأول - اللاجتماعي - نجد أن الإمكانيات العقلية والفيزيقية التي توجد عند البدائيين تعادل تقريبا الإمكانيات عند الأقوام البشرية الحالية .

أما بالنسبة للجماعات البشرية فهي تختلف في طول دورة حياتها لأنه قد يقضي عليها وتختفي بسرعة بينما غيرها يستمر آلاف السنين فالأسرة الصينية تظل قائمة بلا نهاية على حين الأسرة في كثير من المجتمعات قد تنتهي بالطلاق.

اذن : لا يوجد هناك دورة حياة قياسية للجماعات البشرية كما أن (الأمة) قد يتسرب إليها الفساد . وقد تقاوم وتكيف نفسها وفق الظروف الجديدة .

فالتطور إذن : هو الذي يرسم مصير الجماعة ومآلها .

درجة التطور في المجتمعات :

التطور هو الحالة الطبيعية للجماعة الإنسانية ، والتطور قد يكون في جماعة أكثر وضوحا وجلاء وأقوى منه في جماعة أخرى . وقد يكون في فترة أكثر وضوحا في جماعة منه في فترة أخرى . ولا يمكن ان يخلو منه مجتمع .

والخلاف الوحيد بين المجتمعات يتلخص في : (سرعة التطور) . ففي المجتمعات الحديثة نجد التطور أسرع منه في المجتمعات القديمة .

كذلك النظم الاجتماعية تتفاوت في تطورها . فنجد أنه بالنسبة للنظام (الديني) . مثلا يكون التطور بشكل طفيف وغير محسوس لبعده عن الهيكل العقائدي في الغالب .

بينما في النظام (الأسري) والتربوي والاقتصادي يوجد تغيرات كبيرة وملموسة وواضحة .

أسباب التطور الاجتماعي :

(١) التغير الفيزيقي :

أهم سبب من أسباب التطور الاجتماعي هو التغير الذي يطرأ على الوسط الفيزيقي الذي تعيش فيه الجماعة . لأن هذا الوسط بما فيه من نبات وحيوان وجماد في تحول مستمر .

هذا إلى جانب التغير الذي يحدث في الإنسان نفسه .

(٢) التغير الكيفي :

كذلك فإن الجماعة نفسها في تغير من ناحية عدد الأفراد إذ قد يزيد أو ينقص . كذلك نوعية الأفراد من ناحية السن فالمجتمع الذي تزيد فيه نسبة الشباب على الشيوخ يختلف في تفكيره وظروفه عن المجتمع الذي تزيد فيه نسب الشيوخ على الشباب وهذا من شأنه أن يغير من حال الجماعة المادي والعقلي .

(٣) التغير الثقافي :

كذلك فإن الحالة الثقافية والعملية تعتبر من عوامل التطور الهامة حيث يؤثر كل ما يصل من ثقافة إلى الجماعة عن طريق مفكريها . وعلمائها وعقلها الجمعي في تطورها ويغير في نظمها .

تغير الهجرة :

تتأثر الجماعة بجماعة أخرى عن طريق (الهجرات) مع ما يتبع ذلك من انتشار ثقافي وحضاري .

فمثلا نجد (اليونان) تأثرت بالثقافة (المصرية) بعد غزو الاسكندر لمصر. وقد نشط الانتشار الثقافي في العصور الحديثة بفضل سهولة المواصلات وأدى ذلك إلى ايجاد حركة تطورية كبيرة في الجماعات المختلفة .

أنواع التطور :

إذا نظرنا إلى التطور الذي طرأ على المجتمعات نجده واسع النطاق ونستطيع أن نقسمه إلى :

(أ) التطور المادي :

نجد أنه من الناحية المادية فقد استحدثت مخترعات كثيرة في عالم الطب والطبيعة والكيمياء والميكانيكا واللغة وينتج عن ذلك تطور في الناحية المادية .

(ب) التطور الروحي :

التطور الروحي عادة يكون نظريا أكثر منه عمليا.. فنجد أن الشعوب القديمة كانت تعتبر غيرها من الشعوب عبيدا ولا قيمة لهم . ثم حدث تطور تدريجي في (العقليات) وبدأت الشعوب تحترم ذات الإنسان مهما اختلف لونه وعقيدته . وبدأت الجماعات تعترف لبعضها بالأمن والسلام والحقوق والواجبات ونشأت الصلات المختلفة بينهم .

وبذلك يمكن ان يرقى (التطور الروحي) فيشكل مظهرا عمليا . في سلوك الشعوب تجاه بعضهم .

وفي العصر الحديث : ساعدت المؤتمرات الدولية الشعوب على التعاون بين الدول . والاحترام المتبادل بين الجماعات .

ولكننا نجد أن الاستعمار دائما يسحق هذه الروح ويعمل على استغلال الشعوب . مما يجعل التطور الروحي محدوداً بالنسبة للتطور المادي .

وقد تقف العقيدة الدينية ضد هذا التطور أو التحول الروحي مثلما : نراه عند اليهود . الذين يقولون : إنهم شعب الله المختار وبقية الشعوب أقل منهم دما ونقاء . وحبسوا أنفسهم في اطار (اعتزالي) حتى لا يختلطوا مع الجماعات الأخرى . وقد اطلق على هذا الاطار إسم (الجيتو اليهودي) ..

آراء العلماء في أدوار التطور :

إذا أردنا أن نبحث عن غاية التطور . وهل للتطور الانساني قانون ثابت يسير عليه ؟ وهل يسير التطور وفق ظروف معينة أم بلا اتجاه ؟ .

فإننا نجد العلماء قد بحثوا هذه النقطة وخصوصا علماء فلسفة التاريخ فقد بحثوا في تحديد الاتجاه العام لتطورالبشرية وايجاد قانون شامل لهذا التطور .

ونختار من العلماء ما يأتي :-

(١) إبن خلدون :

يرى ابن خلدون في (مقدمته) أن المجتمع الانساني يتطور من البساطة إلى التعقد وهو يمر في حالات ثلاث . وهي :

(١) حالة البدو . (٢) حالة الملك .

(٣) حالة الحضارة .

وشبه ابن خلدون المجتمع بالكائن الحي الذي يمر بدور الطفولة والشباب والكهولة والتي تؤدي به إلى الاضمحلال والفناء .

(٢) فيكو :

يرى (فيكو) أن تطور الإنسانية يسير دائما نحو التقدم وهي تنتقل خلال هذه المراحل :

(١) مرحلة الهمجية .

(٢) مرحلة الأديان .

(٣) مرحلة تقوم على القواعد والقوانين التي تحكمها .

(٣) روسو :

أما الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) فيرى عكس (فيكو) : فالبشرية في نظرة انتقلت من حالة الهمجيــة إلى حالــة الحضــارة وقــد أدت هذه الحضارة إلى أن يتشبث الإنسان بحضـــارة أكثر وأوسع

فكأن (واقعــه) همجـا و (أمله) حضارة .

(٤) أوجست كونت :

أما الفيلسوف الاجتماعي (أوجست كونت) فيدعي : أن الإنسانية مرت بثلاث مراحل هي :-

(١) مرحلة دينية .
(٢) مرحلة ميتافيزيقية .
(٣) مرحلة وصفية .

قيمة التطور في المجتمع :-

وفي النهاية فإنه بينما نجد بعض العلماء يعتقدون في أن (التطور) يتجه بالإنسانية إلى (التقدم) .

فإن بعضهم يرى أن التطور يتجه بالانسانية إلى (التأخر) .

بل إننا أيضاً نجد آخرين لا يؤمنون بفكرتي (التقدم والتأخر) بدعوى أن هذه الأفكار معيارية وبالتالي لا تتفق مع البحوث العلمية السليمة .

ولا شك في أن التطور عموما ينسق بين النظم الاجتماعية المختلفة التي تسود الجماعة .

فالتطور الثقافي له أثره الحتمي في النظم الأخرى التي في المجتمع . حيث يجب أن تتطور بشكل (ما) حتي يكون هناك تناسقا بين أنظمة المجتمع المختلفة وإلا حدثت هوة إجتماعية تؤدي في النهاية إلى (المشاكل الاجتماعية المختلفة) .

التغير الانحلالي

أو

التفكك الاجتماعي

ما المقصود من الانحلال أو التفكك الاجتماعي ؟

التفكك الاجتماعي ما هو إلا انكسار في نظام من النظم التي يقوم عليها المجتمع .

أو انحلال في قيمة من القيم الأخلاقية التي يحرص عليها المجتمع .

فمثلا مسألة (كسب المال) من الطريق الحلال .. فإن المجتمع الذي يؤمن بهذه (القيمة) يتخذ من العمل المنتج والمجهود الشخصي أساسا لكسب المال ..

ولكن قد تحدث ظروفا معينة وتتطور أحوال هذه المجتمع فتكثر السرقات والرشاوي والوساطات .. حينئذ يحدث (الفكك الاجتماعي) .

والذي يهمنا أن نوضحه هنا أن : الانحلال الاجتماعي لا يعني دائما ظاهرة غير مرغوب فيها أو شيئا لا أخلاقيا بل يجب أن يكون من مفهوم (التفكك) التحول المفاجئ فمن الممكن ان يكون أحيانا ظاهرة مستحبة أو خيرة ...

فقد تحدث (ثورة) تؤدي إلى القضاء على كل النظم الاجتماعية . وتبدو حياة جديدة بنظم جديدة .. وهو في هذه الحالة يكون بمثابة توقف بسيط لكل ما يقفز بالمجتمع إلى الأمام وتتحول النظم الجديدة إلى (قوة اجتماعية) وقد تحظى بنفس مكانة (القيم) التي تلاشت بالتفكك الطارئ .

وينطبق هذ الكلام أيضا على (الأفراد) .. فنحن نصف الشخص الذي لم يراع المقاييس الاجتماعية في سلوكه وخلقه أنه (شخص منحل)

ولكننا أيضاً يمكننا أن نطلق هذا التعبير علي الفرد الذي يكون (متذبذبا) بين جماعتين .. وهو حائر لا يدري أي (الأنماط) يريد أن يتبعها .

مثال : الشخص الريفي الذي هاجر إلى المدينة وهو لا يدري ما يجب أن يسير عليه ووفق أي نوع من السلوك يتوافق ..

هل يتبع الأنماط الريفية التي نشأ عليها .

أم يتبع أنماط المدينة السائدة فيها .

وهذا الشخص يطلق عليه وصف (منحـل) إلى ظاهرة سلوك (ما) وذلك هو الانحلال من وجهة نظر مصطلح علماء الاجتماع [١] .

إذن الانحلال الاجتماعي - كما يعرفوه - ليس شيئا شريرا أو غير مرغوب فيه .

بل معنى الانحلال (فقد النظام) الموجود . والذي قد يكون نظاماً (سيئا) فيكون (الانحلال) بمثابة (النجاة) من السوء حينئذ .

وعليه فالانحلال قد يدل على : ظاهرة عادية سليمة لا تزعج المجتمع ..

والفيصل في هذا هو المجتمع نفسه . فهو الذي يحكم على نوعية التفكك هل هو تفكك عادي مقبول .. أم أنه ضار يقاوم .

والعقل الجمعي هو الذي يدعو الأفراد إلى التدخل لحماية المجتمع من أثر التفكك إذا وجد فيه ما يهدد وجوده وظواهره الاجتماعية .

ما هي أسباب التفكك الاجتماعي ؟

(١) التطور :

في الواقع أنه من أهم أسباب التفكك الاجتماعي هو (التطور) لأنه في أي مجتمع نجد (الأنماط) الاجتماعية في تطور مستمر .. ولكن هذا التطور ليس بنسبة واحدة ..

وينتج عن ذلك ما يسمى " بالهوة الاجتماعية " هذه الهوة الاجتماعية بين النظم تتسع شيئا فشيئا حتى تصبح خطراً يهدد المجتمع ويبدأ المجتمع يشعر بها فيرى كأنه لا بد من التدخل لعمل شئ لحل هذا الموقف الذي يسمى (بالمشكلة الاجتماعية) .

---

(١) لعله وضح الفرق بين مراد (علم الاجتماع) ومراد (علم الأخلاق) من مصطلح (الانحلال) .

مثال ذلك : لو بحثنا في مجتمع (ما) نجد أن عدد السكان في تطور مستمر وبالتالي يطلب الأفراد المأكل والمشرب والملبس - وغير ذلك .

فلو أن الإمكانيات الاقتصادية تطورت بنفس نسبة الزيادة في عدد السكان ما كان هناك مشكلة أو هوة اجتماعية ..

ولكن قد يكون تطور هذه الامكانيات الاقتصادية بنسبة أقل من تطور عدد السكان . هنا تحدث (الهوة) الاجتماعية وتظل تتسع على مر السنين .. فيشعر المجتمع بضعط من الناحية الاقتصادية وتظهر مشكلة (الفقر) وانخفاض مستوى المعيشة .

(٢) العوامل الشخصية للأفراد :

قد يكون هناك بعض الأسباب الأخرى للانحلال الاجتماعي منها (العوامل الشخصية) فنجد هناك أفراداً لا يستطيعون (التكيف) مع الوسط الذي يعيشون فيه بسبب عاهتهم الجسمية أو العقلية .

وأيضا يوجد بعض الأفراد غير متكيفين مع المجتمع وذلك بسبب تنشئتهم العائلية غير السليمة .

(٣) الظروف الطبيعية :

الظروف الطبيعية كالزلازل والبراكين والمناخ ، يمكن أن تؤدي هذه الظروف إلى مشكلات معقدة نتيجة لما تحدثه من كوارث في بعض الأحيان أو لما تفرضه من نوعية معينة من المعيشة على الأفراد .

التغير الغائي :

وهو ذلك التغير الذي يحدثه المجتمع في نظمه أوالأسس التي يقوم عليها وذلك لتحقيق غاية معينة .

والتغير الغائى (متعمد) بعكس التغيير الذي تحدثنا عنه - آنفا - فهو يحدث بشكل تلقائي نتيجة الظروف الخاصة .

والتغير الغائي يحدثه الإنسان لتحقيق أهداف خاصة وغاية محددة من أجلها أجري هذا التغير .

ولعل تسميته (التطور الغائي) يوضح ماهيته . عند مقارنته بالتطور التلقائي .

وهذه الأهداف هي التي تدعو المجتمع إلى التقدم للإنقاذ من حال قد يؤدي إلى الانهيار إذا لم يحدث التدخل السريع بطريق (التطـور الغائي) فهـو وسيلـة (إصلاح) للحياة الاجتماعية .

معنى الإصلاح الاجتماعي :

الإصلاح الاجتماعي عبارة عن : تغير غائي . بسلوك الطريق الذي يمكنه تحقيق الإصلاح سواء كان هذا الطريق : تشريعا قانونياً . أو عرفا . أو قيمـة . أو غير ذلك من الأدوات الممكنة .

حتى يصل (الإصلاح) بالجماعة الإنسانيـة إلى (الأهداف) المراد تحقيقها القائم بالتغيير الغائي (المصلح) والذي يبدأ بدارسة المشكلة التي تشكو منها الجماعة . فيتعرف على أسبابها ويضع العلاج وفق الإمكانيات المتاحة لديه . ثم يلجأ إلى نشر آرائه وبثها في (الرأي العام) حتى يكسب تأييده للإصلاح - التغيير الغائي - فالدعاية من أهم الوسائل التي تؤدي إلى (نجاح) الإصلاح الاجتماعي .

وعلينا هنا : أن نذكر منهج الأنبياء والرسل في الإصلاح الاجتماعي (التغير الغائي) وكيف كانوا يحسون (المشكلات) ويتجهون إلى (الناس) في دعوتهم معتمدين على الدعوة والدعاية لله تعالى والعقائد التي ينشدون نشرها .

فكانوا : دعاة (إصلاح) في الحياة الروحية والحياة الاجتماعية .

تقييم :

ولعلنا الآن نستطيع أن نحكم في قناعة أن (ابن خلدون) هو منشيء علم الاجتماع بمعناه المعاصر .

فقد رأينا كيف ابتكره قبل علماء الغرب .. ؟
وكيف خاض في جميع مسائله العلمية .. ؟
وكيف احتوى (علم العمران) على كل هيكل (علم الاجتماع) .
وإن تباعدت بعض (التسميات) فإنه : لم تتباعد أبداً (المسميات) .

والذي يشدنا هنا : أن ابن خلدون كان يصدر عن منطلق إسلامي وهو يخط (علم العمران) . إذ أنه أدرك أنه :
يسهم في إبراز (القوانين) التي تساعد على نهضة الأمة الإسلامية ليتحقق فيها وعد الله تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

ومن هنا : كانت قوانينيه محكومة بقانون الإسلام العام الذي يرتبط بالله تعالى . ولا يتناقض أبداً ..

أما (علماء الغرب) فقد كان صدورهم عن (علمانية) وليدة . تسعى لسيطرة القانون البشري على الحياة الاجتماعية باعتباره - في نظرهم - المنهج الصالح .

ولذلك : كثر الاختلاف بين (روأد) علم الاجتماع من الغربيين حتى كان الواحد ينقض (نظرية) الآخر . ويهدم (قانونه) ..

وعندما استقرت (قواعد) علم الاجتماع العام كانت هي (الصورة) المعبرة عن (علم الاجتماع) كما أراده (ابن خلدون) .

ولعل هذا هو السبب : في أن (ابن خلدون) لم يتناقض لا مع نفسه .. ولا مع غيره من الاجتماعيين ..

خاتمــــة

وبذلك : نكون قد حاولنا من رحاب الأزهر الشريف أن نوفي (ابن خلدون) بعض حقه .. فإن (علم العمران) أول ما قرأه (ابن خلدون) كان في الأزهر . وأنقحه طلابه بالتعرض والتساؤل ..

فكان من الواجب أن يصل أبناء الأزهر عصراً بعصر ..

وأن نجلّي بضاعتنا التي ردّت إلينا . حتى نير أبناءنا ونحفظ في عقولنا وقلوبنا عالمنا الفيلسوف الاجتماعي المسلم .

[عبد الرحمن بن خلدون]

ونسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لإبراز هذه الفكرة في هذه الدراسة المختصرة .

وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم حتى ندرك أصالة مناهجنا وعمق تراثنا .. وقوة ماضينا ... وتماسك قوانيننا .. وأن (السبق) كان بالإسلام .

وعسى الله أن ينفع به ويذكر .. ويربط ويحفّز ..

إنه سميع مجيب الدعاء .

[ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا وإليك المصير] .

هذا .. وبالله التوفيق ..

دكتور
مصطفى غلوش
كلية أصول الدين
القاهرة

ثبت

موضوعات الكتاب

الموضوع | الصحفة

تم بحمد الله

رقم الإيداع ٧٨/٧٠٧٨/١٩٩٠

الترقيم الدولي ISBN
977 - 5101 - 05